موسى إبراهيم أبو رياش

للّه يا مُحْسِنين

قصص قصيرة

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2025م

الفهـرس

- الإهداء..... 3
- أمّا قبل..... 5
- عيْنانِ دامعتانِ..... 8
- المقعدُ الفارغ..... 11
- دينارانِ فقط..... 14
- أسرارُ اليدِ الممدودة..... 18
- لثامٌ في الزحام..... 22
- صورةٌ على الجدار..... 24
- بائعُ الكلمات..... 28
- أُجرةُ الجوع..... 31
- صديقي المتسوّل..... 34
- سَقفٌ لا يتسرّب منه المطر..... 38
- حارسُ الذاكرة..... 42
- الناسُ للناسِ..... 47
- أربعون ثانيةً..... 51
- تصريحُ عمل..... 54
- الطفلةُ التي لم تكبر..... 57
- 7..... 60
- دائرةُ الظنون..... 63
- الضوءُ الأحمر..... 66
- الرجلُ الآخر..... 70
- لا تُخبر أحدًا..... 73
- نِصفُ دينارٍ..... 76

الإهداء

إلى حفيداتي وأحفادي

روح الرُّوح

زينة إياس و كيراز لقمان و مريم أيوب

و فرح إياس و إبراهيم لقمان و ...

امتداد الحلم، وبهجة الأيام، ومرايا الأمل،

ربيع الحياة، وبسمة العمر، ونبض القلب.

إليكم يا مَنْ تَنبتون في قلبي كما تَنبتُ الأزهار في مواسمها،

أهدي هذه القصص،

ففيها نبضٌ من محبتي التي لا تنضب

وفي القلب دعاءٌ لا يفتر:

أن يحفظكم الله، ويجعل أيامكم نورًا، وخُطاكم سَكينة،

وقلوبكم فيضًا للإيمان والرَّحمة.

«ليست الكتابة أن نبحث عن الحكايات الكبيرة...
بل أن ننحني قليلاً لنرى الحكايات الصغيرة التي يتجاوزها الجميع».

أُديــمُ مِطَــالَ الجُــوعِ حتّــى أُمِيتَــهُ
وأضْـرِبُ عَنْــهُ الذِّكْـرَ صَفْحًــا فأُذْهَـلُ
وَأَسْـتَفُّ تُـرْبَ الأرْضِ كَـيْلا يُـرَى لَـهُ
عَلَــيَّ مِــنَ الطَّــوْلِ امــرُؤٌ مُتَطَــوِّلُ

الشنفري

أمّـا قَبــل

أما قبل...

ليست كل يدٍ ممدودة تطلب مالًا، وليس كل من أغلق قبضته يملك ما يكفي.

ليس من السهل الكتابةُ عن التسوّل، فهذه الكلمة وحدها تكفي لاستدعاء صورٍ متناقضةٍ؛ الشفقةُ والريبةُ، الرحمةُ والنفورُ، الصدقةُ والاستغلالُ، الحاجةُ والاحتيالُ. وما بين هذه الثنائياتِ المتقابلة تضيعُ غالبًا الحقيقة، وتختفي الوجوهُ الإنسانية خلف أحكامٍ جاهزةٍ لا تَمنحُ أصحابها فرصةً للكلام.

هذه المجموعة القصصية ليست دفاعًا عن التسوّل، ولا محاولةً لتجميله أو شَرعنَته، ولا دعوةً إلى ممارسته أو التعاطف غير الواعيّ معه؛ فالتسوّل، في صورته الطبيعية، ظاهرة مرفوضةٌ أخلاقيًا وإنسانيًا وقانونيًا، لأنها تمسّ كرامة الإنسان أولًا، وتكشف خللًا في المجتمع ثانيًا. لكنها، في الوقت نفسه، ليست ظاهرةً يمكن اختزالها في يدٍ ممدودةٍ عند إشارةِ مرور، أو في شخصٍ يجلس على رصيف شارعٍ. إنّها عالمٌ كاملٌ، تتشابك فيه الحاجة مع الطّمع، والضّعف مع الجريمة، والفقر مع التجارة، واليأس مع الأمل، حتى يصعب أحيانًا الفصل بين الضحية والجلاد.

أما قبل...

هذه القصص لا تبحث عن أعذارٍ للتسوّل، بل عن الإنسان الذي اختفى خلف صورته

وتحاول هذه القصص أن تفتح نافذةً على هذا العالم المغلق؛ عالمٍ لا يعرفه معظم الناس إلا من بعيدٍ؛ ففيه أناسٌ دفعتهم الحياة إلى السؤال بعد أن أُغلقت في وجوههم الأبواب، وفيه آخرون لم يعرفوا مهنةً غيره، وفيه من يتسوّل خوفًا من فقر لم يقع بعد، حتى صار الخوف نفسه مرضًا يلتهم روحه، وفيه أيضًا رجال صنعوا من التسوّل إمبراطوريّةً خفيةً، يفرضون على المتسوّلين قوانينهم، ويقتطعون ضرائبهم، ويُوزّعون الأماكن كما تُوزَّع مناطق النفوذ، حتى غدا بعض المتسوّلين يعملون لدى سادةٍ لا يقلّون قسوة عن أي مستغِلٍّ في عالم الجريمة.

ولأنَّ الأدب لا يكتفي بوصف الظواهر، بل يحاول النفاذ إلى ما وراءها، فإنّ هذه القصص لا تبحث عن النقود التي تقع في أيدي المتسوّلين بقدر ما تبحث عن الثقوب

التي سقطوا منها إلى هذا المصير؛ عن الطفولة المكسورة، والجوع، والبطالة، والإعاقة، والمرض، والتفكّك الأسري، والتمرد الاجتماعي، وأوهام الكسب المريح، وعن تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان أن مدّ يده صار أهون عليه من مدّ وجعه إلى أحد.

وتشير قصص هذه المجموعة إلى أنّ التسوّل لا يقتصر على طلبٍ للمال، فقد تمدّد حتى صار ثقافة تتخفّى في صور شتّى؛ فهناك مَنْ يتسوّل الحب، ومَنْ يتسوّل الاهتمام، ومَنْ يتسوّل الشهرة، ومَنْ يتسوّل المنصب، ومَنْ يتسوّل الاعتراف، ومَنْ يتسوّل النفوذ، كما أنّ مؤسساتٍ، بل ودولًا بأكملها، قد تجد نفسها تمارس أشكالًا مختلفة من التسوّل، وإن اختلفت الأسماء وتبدلت الوسائل. إن اليد قد لا تكون ممدودة دائمًا، لكن الحاجة قد تكون كذلك.

ومن هنا، فإنّ وجود المتسوّلين في أي مجتمعٍ ليس عيبًا فيهم وحدهم، بل هو سؤال أخلاقي يوجَّه إلى ذلك المجتمع أيضًا. فحين يُترك إنسانٌ ليستبدل عمله بالسؤال، أو تُترك أسرةٌ كاملةٌ رهينة الحاجة، أو يُسمح لشبكاتِ الاستغلال أن تنمو على هامش المدن، فإنّ القضية تتجاوز الفرد لتصبح مرآةً تكشف مقدار العدالة الاجتماعية، وتكافؤِ الفرص، واحترام الإنسان. ولا يمكن لأي مجتمع أن يطمح إلى القضاء على التسوّل ما لم يُعالج أسبابه قبل أن يُعالج مظاهره، وما لم يُؤمّن للناس سبل العيش الكريم التي تحفظ لهم كرامتهم قبل قوتهم.

ولذلك، فإنّ هذه القصص تدعو قارئها إلى أن يقترب قليلًا قبل أن يحكم، وأن يُصغي قبل أن يُدين، وأن يتذكّر أن وراء كل يدٍ ممدودةٍ حكايةٌ لا يعلم تفاصيلها إلا الله. نعم، بين المتسوّلين مَنْ اتخذ السؤال تجارةً مريحة، ومَنْ احترف خداع الناس واستدرار عواطفهم، لكن وجود هؤلاء لا يمنحنا الحق في أن نعمّم أحكامنا على الجميع، كما أنّ وجود الصالحين لا ينفي وجود المسيئين. فالإنسان أعقد من أن يُختصر في صورةٍ عابرةٍ، أو في لحظة نراها عند إشارة مرور.

لا تدعوك هذه القصص أن تمدّ يد العون للمتسولين، أو تساعدهم، ولكن لا تسيء إليهم أو تنظر إليهم بدونيةٍ واحتقار، ولا تطردهم أو تنهَرَهم (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ).

وإذا خرج القارئ من هذه المجموعة وقد نظر إلى المتسوّل بعينٍ أكثر إنصافًا، وإلى المجتمع بعينٍ أكثر مساءلةً، وإلى نفسه بعينٍ أكثر امتنانًا، فقد بلغت هذه القصص بعض غايتها.

والحمد لله الذي أغنانا بما قسم لنا، وسترنا عن ذلّ السؤال، وأكرمنا بكفايةٍ تحفظ ماء الوجه. فليس أعظم من نعمة العطاء إلا نعمة الاستغناء، وليس أثقل على النفس من أن تمدّ يدها إلى الناس، تستجدي كريمهم ولئيمهم، بحثًا عما يسدّ رمقها أو يطفئ خوفها.

وعلى الله قصد السبيل.

عيْنـانِ دامِعتـان

كانت الطفلة تعرف أنّ عليها أن تَبتسم للناس مهما كانت مُتعبةً، هكذا كانت زوجة أبيها توصِيها كل صباحٍ قبل أن تدفعها إلى الشارع. تقول لها: «إنّ الوجوه العابسة لا تجلب المال، وإنّ الناس يعطفون أكثر على الطفل الذي يبدو ضعيفًا وحزينًا». لذلك كانت تقف عند الإشارة الضوئية منذ ساعات الصباح الأولى، تنتقل بين السيارات الصغيرة والحافلات، تمدُّ يدها تارةً، وتَمسحُ دموعًا حقيقيةً تارةً أخرى.

في ذلك اليوم، لم تكن الشمس أشدّ حرارةً من الأيام السابقة، ولم يكن الشارع أكثر ازدحامًا، لكن حظّها خانها، أو أنّ لحظة الحقيقة قد حانت؛ اقترب منها أحد رجال الأمن، وما إن أمسك بيدها حتى ارتجف جسدها الصغير كلّه، حاول أن يُهدئها، لكنها انفجرت بالبكاء، لم يكن بكاءَ خوفٍ إلا بقدر ما كان بكاء طفلةٍ انهارت وظلّت تحمل ما يفوق عمرها سنواتٍ طويلة.

في مركز الأمن، وبين شهقاتها المتلاحقة انكشفت الحكاية كاملةً؛ قالت إنّ أمها ماتت قبل سنوات، وإنّ زوجة أبيها أخرجتها من المدرسة، وتجبرها على الوقوف عند الإشارات الضوئية للتسوّل، وتأخذ منها كل ما تجمعه مساءً. وحين سألها رجل الأمن عن أبيها، هزّت رأسها سريعًا وقالت إنّه لا يعلم شيئًا، فهو يخرج إلى عمله في الصباح الباكر، ولا يعود إلا عند الغروب مُتعبًا وموجوعًا.

استدعيَ الأب إلى مركز الأمن، فوصل مسرعًا بثياب العمل الملطخة بالغبار والإسمنت، وقد بدت على وجهه علامات فزع حقيقي، وما إن رأى ابنته حتى أسرع نحوها وضمها إلى صدره، فشعرت، لأول مرّةٍ منذ زمنٍ طويل، أنّها ما زالت طفلة.

استمع الرجل إلى حكاية ابنته، وهو يهزُّ رأسه غير مصدّق. أقسم أنّه لم يكن يعلم شيئًا مما يحدث، وأنّه لو علم لما سمح لابنته أن تقف يومًا في الشارع تستجدي المارة. كان صادقًا متأثرًا حزينًا إلى درجة أنّ رجل الأمن تعاطف معه وأشفق عليه، وحين انتهى التحقيق، تعهد بأن يرعاها بنفسه، وأن يعيدها إلى المدرسة مهما كلفه الأمر.

في طريق العودة إلى البيت، كانت الطفلة تجلس إلى جواره في الحافلة ترمقه بمحبة وثقة، لم يتحدث كثيرًا، فقد صدمه ما حدث وألجمه، لكنه كان يربت بحنانٍ وخوفٍ على

رأسها بين الحين والآخر، مما طمأنها وأدخل السرور إلى قلبها الصغير، فراحت تتخيّل نفسها في الصف الدراسي، تجلس إلى طاولةٍ خشبيةٍ بين زميلاتها، تضع كتبها بين يديها، وترفع يدها لتجيب عن سؤال المعلمة. كان الحلم صغيرًا، لكنه بدا قريبًا بما يكفي لتلمسه

غير أنّ البيت كان ينتظرهما بحكاية أخرى.

حين واجه زوجته بما حدث ودورها في ذلك، أنكرت كل شيء في البداية، ونظرت إلى الطفلة نظرة تهديد ووعيد، ثم سرعان ما تحوّلت لهجتها إلى هجوم واتهام. قالت إنّ ابنته هي التي تحب التسوّل، وإنّها تكره المدرسة، ثم أخذت تعدد مصاريف البيت وكلفة الطعام والملابس والإيجار، ثم قذفت في وجهه، دون رحمة، الجملة التي أصابته في مقتل: «ما تجمعه ابنتك في يوم واحد أكثر مما تجنيه أنت في أيام من العمل الطويل المرهق».

ساد صمتٌ صاخبٌ وجارح، كان الرجل يعرف أنّ الجملة قاسية، لكنه كان يعرف أيضًا أنّها ليست كاذبة تمامًا. نظر إلى يديه الخشنتين، كم حملتا من أكياس الإسمنت؟ وكم حفرتا في التراب؟ وكم ساعة يقضيها تحت الشمس ليعود آخر النهار بدنانير بالكاد تكفي؟ شعر فجأة أنّه يقارع طواحين هواء، وأنّ سنوات عمره كلها تتهاوى أمامه مثل جدارٍ متهالك.

حاول أن يدافع عن ابنته؛ قال إنّ التسوّل ليس حياة، وإنّ الطفلة تستحق مستقبلًا أفضل. لكن زوجته لم تتراجع، وهددت بالرحيل، وواصلت حديثها عن الفقر والعوز والحاجة وحقها أن تعيش كغيرها من الزوجات، فيكفيها ما عاشته من حرمان وبؤس في بيت أبيها، ومع كل كلمة كانت تقولها، كان يشعر أنّ ظهره ينحني أكثر، وقواه تخور، وكرامته تذوي

من خلف الباب، كانت الطفلة تسمع كل شيء، وحين انتهى الجدال، خرج الأب من الغرفة يجر قدميه، ويغض بصره، لم يكن غاضبًا، ولم يكن منتصرًا أو مهزومًا، بدا كمن عاد من معركة مُثخنًا بالجراح وفقد كل شيء حتى سلاحه وخنجره.

ركع أمام ابنته، رفع رأسه نحوها بعيون دامعة، ثم خفضه من جديد. كان يريد أن يقول أشياء كثيرة، أن يعتذر لها، أن يعدها بالمدرسة، أن يؤكد لها أنّها أغلى ما يملك، لكنه اكتشف أنّ الكلمات لا تُطعم جائعًا، ولا تُسدد إيجارًا، ولا تملأ رفًا فارغًا، لذلك ظلَّ صامتًا طويلًا، وحين تكلم أخيرًا، خرج صوته مكسورًا على نحو لم تسمعه منه من قبل، قال وهو يتجنب النظر في عينيها: «سامحيني يا ابنتي... ».

ثم سكت لحظة، كأنّه ينتظر مددًا أو معجزة تنقذه من بقية الجملة، لكن حبل النجاة كان بعيدًا، فأكمل بصوت خافت، ودموعه على خديه: «اذهبي غدًا... اذهبي إلى... إلى عملك... لكن انتبهي على نفسك». ثم هرب إلى غرفته من موقف لم يتصوره قط في حياته، وهو يشعر بالصَّغار والنذالة والهوان.

شعرت الطفلة بشيء ينكسر داخلها، إلا أنّها لم تبكِ، كانت تنظر إلى أبيها وهو يلوذ بغرفته من نظراتها، لم تره قويًا كما كانت تظن دائمًا، بدا أصغر من عمره، وأكثر تعبًا، وأشد فقرًا مما تخيّلت.

في صباح اليوم التالي، وقفت عند الإشارة الضوئية من جديد، تغيّر الضوء من الأحمر إلى الأخضر عشرات المرات، وتعاقبت السيارات والوجوه كعادتها، لكن شيئًا واحدًا لم يكن كما كان؛ كلما مدّت يدها إلى نافذة سيارة، كانت ترى وجه أبيها أمامها، وكلما حصلت على قطعة نقدية، كانت تتذكر عينيه الدامعتين ليلة أمس.

عند الغروب، أغلقت كفّيها الصغيرتين على ما جمعته من نقود، ورفعت رأسها نحو الأفق البعيد. وفي مكان ما من المدينة، كان أبوها يرفع كيس إسمنت ثقيلًا إلى كتفه. لم تعرف أيهما كان يحمل العبء الأكبر؛ هي أم هو؟!

المَقعدُ الفارغ

كان يجلس كل صباح في المساحة الضيقة بين محلي ومحل جاري، يصل بسيارة أجرة صفراء، ينزل منها بصعوبة، ثم يستند إلى عكازيه ويتخذ مكانه المعتاد. لم يكن يرفع صوته، ولا يُلاحق المارّة، ولا يشدُّ ثياب أحد كما يفعل بعض المتسولين، يكتفي بابتسامة خفيفة وكلمات قصيرة، فإذا أعطاه أحد شيئًا قال: «جبر الله خاطرك»، أو «جزاك الله خيرًا»، أو «أكرمك الله وأحسن إليك»، أو «الحسنة بعشر أمثالها»، أو «لا أحوجك الله إلى أحد من خلقه»، أو «لا رأيت ذلًا قط»، أو «أغناك الله وعافاك»، ... إلى غير هذه الجمل التي تلفت الانتباه، وتبعث كثيرًا على الابتسام والتأمّل وحتى الشكر والدعاء، وكان يقولها بطريقة تجعل الذي أعطاه النقود يشعر أنّه هو مَنْ تلقّى هدية لا مَنْ قدّمها.

مضت سنوات وأنا أراه على هذه الحال. في البداية كنت أراه مثل أي متسوّل آخر، ثم بدأت أراقبه؛ كان مختلفًا في كل شيء؛ في نبرة صوته، وفي لغته، وفي صمته، وفي ذلك الوقار الذي لم يهزمه الفقر.

أحيانًا أدعوه إلى المحل، أقدّم له كوب شاي أو فنجان قهوة. كان يرفض غالبًا، وحين يقبل، يجلس بصمت طويل، استدرجه بسؤال أو ملاحظة أو خبر، فينطلق متحدثًا بالسياسة أو التاريخ أو الأدب كأنّه أستاذ جامعي متقاعد لا رجل يقضي نهاره متسوّلًا على الرصيف

حيّرني أمره كثيرًا، ولا أعرف عنه شيئًا، كنت أسأله عن نفسه، فيغيّر الموضوع. أسأله عن أهله، فيبتسم ولا يجيب. أحاول أن أعرف ظروفه وأين يقيم فيتجاهل، حتى اسمه لا أعرفه.

كان أحيانًا يتأخر، أو يغادر مبكرًا على غير عادته، وكثيرًا ما كنت أسمعه يتحدث إلى نفسه بصوت منخفض، وفي أحد الأيام أصابه ارتجاف شديد، ثم تناول من جيبه قرص دواء فهدأ، وتلفت إلى من حوله معتذرًا ما سببه لهم من قلق.

ذات مساء، وبعد يوم طويل من الركود والضجر، قلت أمامه متعمدًا:

أرجو ألا تفهمني خطأً؛ بعض الناس اتخذوا التسوّل مهنة، ولو أرادوا العمل لوجدوا ألفًا، ولكنه الكسل وإيثار الأسهل والأسرع كسبًا.

كنت أراقب وجهه، رأيت الغضب يشتعل في عينيه. رفع رأسه ببطء وقال:

وهل تعرف أنت ألف عمل لرجل تجاوز السبعين؟ وهل تعرف ألف باب يُفتح لمن أغلقت الدنيا أبوابها في وجهه؟ وهل يُغني عني ما أكسبه مما أتجرّعه من ذلٍّ وهوانٍ؟

أحسست أنني أصبت موضعًا مُوجعًا، لكني واصلت الاستفزاز:

صدقني لا أقصدك، ولكن مع ذلك، يبقى التسوّل اختيارًا.

ضرب الأرض بطرف عكازه، ثم قال بصوت مرتجف:

لا تتحدث عن أشياء لا تعرفها، ولا يسرك أن تعرفها.

ساد الصمت لحظات. كانت السيارات تمرُّ أمامنا، والناس يعبرون الشارع، أما هو فكأنّه يقف على حافة عمر كامل. ثم قال:

كنت أملك شركة صغيرة، وعندي موظفون، وتعلّم أولادي في الجامعات، ولم أمدَّ يدي لأحد يومًا.

توقف قليلًا:

ثم جاءت المصائب متتابعة: مرض، وخسارة، وشركاء غدروا، وأقارب أغلقوا أبوابهم، وأيام لا ترحم.

نظر إلى كفيه النحيلتين:

هذه العكازات ليست ما أعانيه، ولا أثقل ما أحمله.

ثم رفع عينيه نحوي:

أثقل شيء أن تشعر أنّك أصبحت عبئًا على مَنْ كنت تسندهم بالأمس.

لم أعرف ما أقول؛ لحظتها شعرت أنّ الرجل لا يتحدث عن نفسه وحده، كان يتحدث عن مئات الوجوه التي نعبر بجانبها كل يوم دون أن نراها.

تنهد وقال:

وراء كلّ يدٍ ممدودةٍ حكاية، وبعض الحكايات لو عشتها يومًا واحدًا لتمنيت الموت قبلها.

ثم أشار إلى المحال والسيارات والناس والمباني المحيطة بنا بيديه بحركة دائرية واسعة:

أنتم تظنون أنّ الفقراء سقطوا من السماء؛ لا، نحن أبناء هذا المجتمع، خرجنا من بينكم، وما أصابنا يمكن أن يصيب غيرنا.

اقترب برأسه مني قليلًا وقال:

لا تأمن للدنيا يا بني، إنّها لا تُعطي أحدًا عهدًا.

ثم نهض بصعوبة، وصرخ:

تاكسي.

تقدّم جاري ليساعده. ركب السيارة، وقبل أن يُغلق الباب، نظر إليّ نظرة لن أنساها ما حييت، وقال:

لا تسخر من مكان أحد؛ فقد تستيقظ يومًا فتجده مكانك، أو تجدك مكانه.

وأغلق الباب، وغادرت السيارة.

في اليوم التالي لم يأتِ، فقلت لعلّه مريض، وفي اليوم الذي بعده لم يأتِ أيضًا. ثم مضى أسبوع كامل، فسألت عنه أصحاب المحال المجاورة، فلم يعرف أحد شيئًا. اختفى كما يختفي الغريب بعد أن يؤدي رسالته ويمضي.

مرّت سنوات منذ ذلك اليوم. كبرت أنا أيضًا، وشاهدت رجالًا فقدوا تجارتهم، وآخرين خسروا وظائفهم، وأقوياء أنهكتهم الأمراض، وأغنياء صاروا يستدينون ثمن الدواء.

وفي كل مرّة أرى فيها عجوزًا يجلس على رصيف أو يمدُّ يده للناس، أتذكر العجوز الذي لم أعرف اسمه، أتذكر صوته وهو يقول: «لا تأمن للدنيا»، فيقشعرّ بدني، وأضع ما أستطيع في يده، لا لأنني متأكد من قصته، بل لأنّني متأكد من شيء واحد: «أنّ الإنسان لا يعرف أي طريق قد تسوقه إليه الأيام».

وأحيانًا، حين أغلق المحلّ مساءً، أنظر إلى تلك المساحة الصغيرة بين المحلين، ما زال المكان فارغًا منذ رحيله، لكنني كلما وقع بصري عليه، أشعر أنّ رجلًا عجوزًا ما زال جالسًا هناك، يبتسم بهدوء، ويردد كعادته: «لا أحوجك الله إلى أحد من خلقه».

دينـــارانِ فقـــط

كان موظفو الشركة وعملاؤها ينادونه «الأستاذ فريد»؛ مدير ناجح دمث الأخلاق وصاحب قرار، وشريك في شركة كبيرة يعمل فيها عشرات الموظفين. لم يكن يحب أن يتحدث كثيرًا عن نفسه، ولكنني كنت أعرف أنّه بدأ حياته من الصفر، وشقَّ طريقه في الصخر، وكافح وصبر وتحمَّل حتى وصل إلى ما وصل إليه.

لكن شيئًا واحدًا كان يُثير استغراب كل مَنْ يعرفه؛ فهو كلما رأى متسوّلًا في الشارع، أو امرأة عجوزًا تجلس على الرصيف تمدُّ يدها طلبًا للمساعدة، أو طفلًا يُلحُّ في الرَّجاء عند إشارة ضوئية، أخرج أوراقًا مالية من جيبه وأعطاها صاحب النصيب دون تردد مع كلمة طيبة ترسم الابتسامة.

كنت أرافقه كثيرًا بحكم العمل، وكنت أراه يفعل ذلك باستمرار. قلت له ذات يوم بعدما ضقتُ ذرعًا، ولم أستطع الصمت:

يا أستاذ فريد، أنت رجل ذكي وخبير بالحياة، ألا تعلم أنّ كثيرًا من هؤلاء يتخذون التسوّل مهنة؟

ابتسم ولم يجب. وفي يوم آخر كررت السؤال نفسه، فقال بهدوء:

ربما يكون كلامك صحيحًا.

ظننت أنّه اقتنع أخيرًا، لكنني فوجئت به، بعد دقائق، يعطي متسوّلًا آخر بعض المال. لم أتمالك نفسي وقلت:

إذا كنت تعرف ذلك، فلماذا تستمر؟

سكت قليلًا، ثم نظر من نافذة السيارة وقال:

لأنّني لا أستطيع أن أنسى.

التفتُ إليه مستغربًا:

تنسى ماذا؟!

سأخبرك ذات يوم.

ألححت عليه كثيرًا. أوقف سيارته تحت شجرة ظليلة. صمت طويلًا حتى خلتُ أنَّه لن يتكلم، وهو شبه غائب، ثم تنهد وقال:

إنّها قصة قديمة، لكنها ما زالت تعيش معي حتى اليوم، ولا يُمكن أن أنساها.

ثم بدأ يحكي.

قبل أكثر من عشرين عامًا كنتُ موظفًا صغيرًا براتب هزيل لا يكفيني وأسرتي إلا بشقّ الأنفس. ذات يوم، مرضت والدتي، واضطررت إلى دفع معظم راتبي للعلاج. قبل حلول الراتب بأسبوع، لم يبق معي إلا أجرة الطريق إلى الشركة التي كنت أعمل فيها، وكلي أمل ورجاء أن يوافق مديري على منحي سلفة صغيرة طارئة، خاصة وأنّها أول مرة أطلب فيها ذلك والراتب على الأبواب.

لم يرفض فقط، بل فعل ذلك بطريقة جعلتني أشعر بأنّني لا أساوي شيئًا؛ مجرد شحاذ يستجدي. خرجت من مكتبه مهزومًا مُحطمًا.

بعد انتهاء الدوام ذهبت إلى مجمع الحافلات. فتشت جيبي مرّة بعد مرّة. لم أكن أملك أجرة العودة إلى البيت. جلست على مقعد حديدي أراقب الحافلات وهي تغادر الواحدة تلو الأخرى، وكنت أقول لنفسي: لا بُدَّ أن يمرَّ شخص أعرفه.

مرّت ساعة. ثم ساعتان. لم يهدأ هدير المحركات، وانطلاق الحافلات، وضجيج الركاب، وأصوات السماسرة والباعة المتجولين. أوشكت الشمس على المغيب. لكن أحدًا لم يمر. اشتد الجوع والعطش، وأخذ الدوار يتسلل إلى رأسي، وفي النهاية تمددت ضعفًا ويأسًا على الأرض بجوار المقعد الحديدي، عاجزًا عن التفكير. لا أدري كم مرّ من الوقت عندما وقفت فوق رأسي امرأة متسوّلة طبعت عليها قسوة الحياة بصمتها، كنت أراها منذ وصلت تتنقل بين الناس والحافلات تطلب المساعدة. سألتني بلطف واهتمام:

ما بك؟ هل أنت مريض؟!

هززت رأسي بالنفي. جلست إلى جانبي، كررت بإصرار:

لا تخجل أنا مثل أختك. قل لي. ما بك؟!

ذكرني صوتها الحنون بأختي، وهذا ما آلمني أكثر. ترددت كثيرًا، ثم أخبرتها بالحقيقة

المرّة وأنا أذوب في ثيابي، مطأطئً رأسي، متجنبًا النظر إليها. لم تقل شيئًا. نهضت ومضت مسرعة. ظننت أنّها غادرت. لكنها عادت بعد دقائق تحمل كيسًا صغيرًا. أخرجت منه ساندويتشين، وزجاجة ماء، وعلبة لبن، وعصيرًا باردًا. وضعت الأشياء أمامي وقالت:

هيا. كُل شيئًا تستعيد به عافيتك. يبدو أنّك لم تأكل شيئًا منذ البارحة!

ثم مدّت يدها وأعطتني دينارين. اعترضت فورًا:

لا، لا أستطيع أن آخذها. لا يُمكن أن أقاسمك تعبك ورزقك.

فقالت بلهجة حازمة:

خذها لتعود إلى بيتك. الناس للناس. ستعيدها للحياة عندما تستطيع. ثم إنّه مبلغ بسيط على كل حال.

ثم ابتسمت ومضت بين الحافلات تستأنف التسول كأنَّ شيئًا لم يكن.

سكت فريد قليلًا. كنت أُصغي إليه دون أن أتكلم. قال:

أتدري ما الذي آلمني يومها؟

لم يكن ينتظر إجابة، فأكمل:

أنّ المدير الذي كان راتبه عشرات أضعاف راتبي رفض مساعدتي، وحتى زملائي الذين سمع بعضهم مشكلتي لم يحركوا ساكنًا، بينما المرأة التي كانت تجمع قرشًا على قرش من الناس هبَّت لنجدتي وشاركتني ما تملك.

ثم أضاف بصوت خافت:

لا أعرف ماذا حدث لها بعد ذلك. لا أعرف اسمها، ولا أين ذهبت، ولا إن كانت ما زالت حية أم لا. ولم أبحث عنها أصلًا؛ فقد كان موقفها معي أكبر من أن أقابلها مرّة أخرى، لكنني أعرف شيئًا واحدًا فقط...

توقف لحظة، ثم تابع:

أنا مدين لها حتى اليوم.

قلت مستغربًا:

بدينارين؟

ابتسم وقال:

لا.. المسألة ليست دينارين أو مائة. أنا مدين لها لأنّها أعادت إليّ إيماني بالبشر؛ عندما شعرت أنّ الدنيا كلها أغلقت أبوابها في وجهي، فتحت هي نافذة صغيرة من النُّور والرَّحمة.

نظر إلى رجل مُسنٍّ يقف على مسافة قريبة يحمل كيسًا مهترئًا، يبدو أنّه ينتظر مساعدة المارّة. نزل من السيارة، ووضع بعض المال في يده.

قال بعد أن استأنفنا طريقنا:

- منذ ذلك اليوم كلما ساعدت محتاجًا، أشعر أنّني أُسدّدُ جزءًا صغيرًا من دَيْنٍ قديم؛ دَيْنٍ لن أستطيع سداده كاملًا ما حييت؛ لأنّ بعض الديون يا صديقي لا تُقاس بالنقود، ولكن بالقلوب التي أمسكت بأيدينا حين أوشكنا على السقوط.

* ملاحظة: الجزء المتعلق بالمتسولة يستند إلى حادثة متداولة.

أسـرارُ اليـدِ الـممدودة

كانت الحكاية تبدأ دائمًا بعبارة يقولها أحدهم على سبيل اليقين، ثم يضحك آخر ساخرًا، ويتدخل ثالثٌ ليضيف تفصيلًا أكثر غرابة؛ زعماء للمتسولين، قيادات، مناطق نفوذ، حصص مالية، مقرات سرية. بل إنّ بعضهم كان يتحدث عن عصابات تُحدث عاهات لبعض المتسولين لاستدرار عطف الناس.

كنت أستمع إلى تلك الأحاديث كما يستمع المرء إلى قصص البحارة عن الجزر البعيدة؛ لا يصدقها تمامًا، ولا يستطيع تجاهلها. ومع مرور الوقت، تحوّلت المسألة إلى شوكة صغيرة في الرأس، كلما ظننت أنني تخلصت منها، عادت لتوخزني من جديد.

سألت متسولين كثيرين، بعضهم هزَّ كتفيه ومضى، وبعضهم نظر إليّ بريبة كأنني أبحث عن شيء لا ينبغي أن أبحث عنه. أحدهم فقط أجابني، كان رجلًا نحيفًا يجلس قرب إشارة ضوئية، قال بهدوء: «إنّ الناس يبالغون كثيرًا، وإنّ كل ما في الأمر أنّ هناك نوعًا من التنظيم وتوزيع الأماكن حتى لا يتزاحم المتسولون على الموقع نفسه»، ثم صمت، وحين حاولت الاستزادة منه، أغلق الحديث كمن يغلق بابًا قديمًا.

لكن ذلك الجواب لم يُطفئ فضولي، بل أشعله أكثر، فبدأت أراقب، وأدوّن ملاحظات صغيرة، وأتابع الوجوه ذاتها وهي تظهر في أماكن مختلفة، وأسأل وأبحث وأتتبع الخيوط، ومع ذلك لم أصل إلى شيء حاسم. عندها خطرت لي فكرة بدت في لحظتها ذكية وشجاعة، ثم أدركت لاحقًا أنّها كانت مجرد تهور وحماقة.

ارتديت ثيابًا رثة اشتريتها من سوق شعبي، وتركت لحيتي تنمو أيامًا، وانتعلت حذاءً مهترئًا، ثم قصدت ذلك الرجل النحيل نفسه. قلت له:

إنني أبحث عن عمل، ولم أعد أملك شيئًا، وأريد أن أتعلّم منك مهنة التسوّل.

رفع رأسه ببطء، حدّق في وجهي طويلًا حتى شعرت بأنّه يقرأ أفكاري لا ملامحي، ثم قال:

ارجع مساءً إن كنت جادًا.

عدت مساءً، فقال:

تعال غدًا.

ولما سألت عن السبب، نظر إليّ ببرود قاسٍ وقال:

لا تسأل ولا تعترض... تعال مساء الغد إن كنت ما زلت راغبًا بالعمل.

في المساء التالي، طلب مني الانتظار بعيدًا. بقي وحده يُكمل عمله وهو يراقب الشارع، كان يلتفت يمينًا ويسارًا باستمرار، يحدّق في السيارات والوجوه والنوافذ. مضت نصف ساعة كاملة قبل أن يجمع أغراضه في كيس بلاستيكي ويشير إليّ أن أتبعه عن بعد.

مشينا طويلًا، تجاوزنا شوارع مزدحمة وأخرى شبه خالية، ودخلنا حيًا شعبيًا في أطراف المدينة، ثم وصلنا إلى حوش واسع تحيط به جدران متآكلة، في نهايته بيت بدا كأنّه مهجور منذ سنوات.

داخل الحوش وجدت رجالًا ونساءً يجلسون على الأرض في صمت، كانوا في أعمار مختلفة، لكن القاسم المشترك بينهم نظرات مترقبة لا تخلو من الخوف أو القلق والتوتر، فجلست معهم، كما أشار إليّ المتسوّل النحيل.

بعد انتظار طويل دخل رجل مسن، كان قصير القامة، حادّ العينين، يتكلم بثقة مدير شركة يشرح لموظفين جددًا نظام العمل، رحب بنا، ثم أخبرنا أنّ برنامج التدريب سيستمر خمسة أيام نظرية وخمسة أخرى عملية، وبعد الانتهاء سيُعتمد كل متدرب رسميًا، وتُحدد له منطقته ونسبة الاقتطاع المستحقة.

لم يبدُ أحد مستغربًا سواي.

في الأيام التالية تلقيت أكثر الدروس غرابة في حياتي؛ تعلمنا كيف نختار الشخص الأكثر استعدادًا للعطاء، كيف نقرأ ملامحه قبل الاقتراب منه، كيف نقف، كيف نحني الرأس، متى نرفع الصوت ومتى نخفضه، أي الكلمات تستدر الشفقة أكثر، وأي القصص تحقق نتائج أفضل.

كان المدرب يصحح أخطاءنا بدقة مذهلة، مرّة أوقف أحد المتدربين وقال له: «الحزن في عينيك غير مقنع». ومرّة طلب من امرأة أن تعيد البكاء ثلاث مرات لأنّ دموعها جاءت في التوقيت الخطأ. كنت أراقب المشهد بذهول متزايد، شعرت أنني في معهد للتمثيل لا مركزًا للتسوّل.

وفي اليوم الخامس وصلنا إلى الدرس الأخير. قال المدرب: «إنّ المتسوّل الناجح لا يكتفي بالكلمات، بل يصنع لنفسه قصة كاملة». ثم بدأ يسرد قائمة طويلة من الأمراض والعاهات والمصائب المحتملة؛ عمى، عرج، شلل، فشل كلوي، عملية جراحية عاجلة، أم مريضة، أب عجوز مسجون، أيتام مهددون بالطرد.

كان يتحدث بهدوء مرعب، كأنّه يشرح أدوات مهنة عادية، وأضاف مبتسمًا:

وأحيانًا تكون العاهة الحقيقية أفضل من التمثيل، لكنها مسألة اختيار شخصي، فلا نملك إجبار أي أحد منكم، فلسنا مسلخًا.

ضحك بعض الحاضرين. أما أنا فشعرت بشيء بارد يسري في ظهري.

في تلك الليلة لم أنم، وحين بدأ التدريب الميداني، اتخذت قراري... اختفيت.

عدت إلى ملابسي المعتادة، إلى وجهي القديم، إلى حياتي السابقة، وأقنعت نفسي أنّ المغامرة قد انتهت، لكنني كنت واهمًا.

في اليوم التالي، كنت أسير قرب سوق شعبي حين شعرت بيد تمسك كتفي بقوة، التفت، كان أحد مسؤولي مركز التدريب. لم يمنحني فرصة للكلام، واقتادني عبر أزقة ضيقة حتى وصلنا إلى رجل يجلس في مقهى متواضع، لم أره من قبل، لكن الجميع كان ينظر إليه باحترام واضح.

جلست أمامه مرغمًا، سألني عن اسمي الحقيقي، وعن سبب وجودي بينهم، وحين أدركت أنّ الكذب لم يعد ينفع، اعترفت بكل شيء. توقعت أن يصرخ، أن يهدد، أن يصفعني، لكنه ظل صامتًا لثوانٍ، ثم انفجر ضاحكًا، ضحك طويلًا حتى دمعت عيناه، قال متهكمًا:

أتحسب أنّنا أغبياء؟!

سكت قليلًا ثم تابع:

من أول يوم عرفنا أنّك لست واحدًا منا، ولا علاقة لك بالتسوّل، ولست من أهله.

غرز إبهامه في جبهتي بقوّة:

طريقة مشيك، نظراتك، أسئلتك، حتى الملابس التي ارتديتها كانت نظيفة أكثر مما ينبغي.

شعرت بحرارة تتصاعد إلى وجهي. أكمل:

راقبناك كما كنت تراقبنا.

شعرتُ بالعراء، وأني أمام تنظيم لا مجموعة على البركة.

ثم مال إلى الخلف وأشعل سيجارة:

لكننا تركناك، بل وقررنا أن نصنع معك معروفًا، فربما تعجبك المهنة وتنضم إلينا، فدخلها أكبر بكثير مما تجنيه بالتأكيد.

عاد يضحك، أما أنا فلم أجد ما أقوله. بعد لحظات تبدلت نبرته، واختفت الضحكة فجأة، وصار صوته ثقيلًا، قال:

إنّ ما رأيته وسمعته يجب أن يبقى حيث هو، وإياك إياك أن تُحدث بما رأيت أو تكتبه أو تنشره، وأعلم أنّ لدينا تسجيلات وصورًا لك تضعك في موقف حرج إن تماديت ولم تلتزم بما أقول، وإني لك ناصح أمين.

صمت قليلًا، ثم أضاف:

حتى لو تكلمت فلن يصدقك أحد، ولكن لا تفكر بذلك ولا تجرب.

لم أفهم إن كان يهددني أم ينصحني، وربما لم يكن الفرق مهمًا. وما إن نهضت، حتى دفعني بقدمه دفعة قوية أفقدتني توازني، وسقطت على ظهري أفترش الأرض.

وللحظة قصيرة رأيت السماء فوقي بلون رمادي باهت، ورأيت وجوهًا تتفرج من بعيد، ورأيت رجلًا يمد يده للناس عند زاوية الشارع. لم أعرف إن كان متسوّلًا حقيقيًا أم ممثلًا بارعًا أم مجرد إنسان ضاقت به الدنيا. نهضت بصعوبة ومضيت، وأنا لا أصدق أني نجوت.

ومنذ ذلك اليوم، كلما رأيت يدًا ممدودة، لم أعد أفكر في الحكايات التي تُروى عنها، وإنّما في الوجوه التي تختبئ خلفها؛ فالحكايات غالبًا أبسط مما نتخيّل، وأعقد بكثير أيضًا

لِثـامٌ في الزحـام

كان أبو حامد كلما سمع جاراته في الحي الشعبي يتحدثن عن العمرة بلهفة، يشعر بشيء من الحيرة لا يجد له تفسيرًا؛ فالنساء اللواتي يشتكين طوال العام من ارتفاع الأسعار، ومن تراكم الديون، ومن صعوبة توفير حاجات أبنائهن، كنّ يحرصن على السفر إلى مكة المكرمة في كل رمضان تقريبًا، ولم يكن الأمر يقتصر على أداء المناسك؛ فقد كنّ يُهيّئن حقائب ممتلئة بالهدايا والعباءات والعطور والسجاجيد والمسابح، ويوزعن بعضها على الأقارب والجيران بفخر ظاهر.

كان يستمع إليهن في دكان الحي أو في أروقة الجمعية الخيرية، ويهز رأسه متعجبًا، لم يكن يعترض على العمرة، فلطالما تمنى أن يزور بيت الله الحرام أكثر مما فعل، لكنه كان يحسب الأمور بعين رجل خبر الحياة وعرف ضيق العيش، وكان يرى أنّ بعض تلك الأسر أحوج إلى المال الذي يُنفق في عمرات متتالية من أي شيء آخر.

ومع ذلك، كان يلوم نفسه أحيانًا على هذا التفكير، فربما فتح الله عليهم من حيث لا يعلم، وربما كان لديهم مَنْ يدعمهم أو يساعدهم. وهكذا كان يطرد الأسئلة من رأسه ويشغل نفسه بما يعنيه.

وفي أحد الأعوام، تيسر له أن يؤدي العمرة في رمضان عندما كان في زيارة ابن له يعمل في مدينة جدة السعودية. كان قلبه خفيفًا وهو يقترب من المسجد الحرام بعد سنوات طويلة من آخر عمرة أداها. ازدحمت الطرقات بالناس من كل لون ولسان، واختلطت الدعوات بأصوات الباعة وخطوات العابرين. وبينما كان يشق طريقه نحو الحرم، استوقفته امرأة تلثمت بغطاء أسود وأخذت تستجديه بإلحاح، تمد يدها وهي تكرر عبارات الرَّجاء والحاجة.

همّ أن يناولها شيئًا، لكنه تجمّد في مكانه؛ كان يعرف ذلك الصوت وتلك اللهجة، لم يكن متأكدًا تمامًا، لكن نبرته أيقظت في ذاكرته صورة امرأة من الحي، امرأة طالما رآها تتحدث عن العمرة وبركتها وفضلها. نظر إليها ثانية، غير أنّ اللثام أخفى معظم وجهها. مضى في طريقه وهو يقنع نفسه بأنّه واهم، واستغفر ربه على سوء ظنّه وريبته.

في المساء، وبينما كان خارجًا من الحرم، لمح امرأة أخرى تستوقف المارّة بالطريقة

نفسها، كانت ملثمة كذلك، لكن هيئتها وحركتها المألوفة أعادتا إليه الشعور ذاته. هذه المرّة لم يكن الشك وحده مَنْ يقوده؛ كان هناك يقين خافت يتسلل إلى داخله بإصرار.

لم ينم تلك الليلة جيدًا، وفي اليوم التالي، خرج مبكرًا، لم يخرج بدافع الفضول وحده، بل لأنّ الأمر ظل عالقًا في ذهنه كشوكة صغيرة. سار في الشوارع المحيطة بالحرم، وراقب الوجوه والحركات، ومع مرور الوقت، بدأت الصور تتجمع أمامه قطعة قطعة، امرأة ثالثة، ثم رابعة، ثم خامسة. كلهنّ من الحي نفسه، ومن المجموعة ذاتها التي كانت تتحدث كل عام عن رحلتها الإيمانية المباركة.

كان بعضهن يبدلن أماكنهن خلال النهار، وبعضهن يغيّرن ألوان العباءات أو طريقة اللثام، لكن الأصوات واللهجات لا تتغيّر بسهولة، ولا تُمحى هيئة الإنسان من ذاكرة من عاشره سنوات طويلة.

عندها فقط انكشف له السر؛ فهم لماذا كان السفر يتكرر كل عام رغم الشكوى المستمرة من الفقر، وفهم كيف كانت الحقائب تعود ممتلئة دائمًا، كان رمضان بالنسبة لهن موسمًا آخر غير الذي يعرفه الناس؛ موسمًا يكثر فيه البذل والعطاء، وتلين فيه القلوب، وتتحرك الأيدي نحو الجيوب بسرعة أكبر من أي وقت آخر.

عاد أبو حامد إلى الفندق مثقلًا بشعور عجز عن تسميته، لم يكن غضبًا خالصًا، ولا شفقة خالصة، ولا حتى إدانة كاملة، كان شيئًا أكثر تعقيدًا.

تذكر تلك النسوة وهن يحملن أكياس الخبز لأطفالهن في الأزقة الضيقة، وتذكر أيضًا الأيدي الممدودة في الطرقات حول الحرم، بدا له المشهد كله كعقدة كبيرة لا يعرف أين يبدأ طرفها وأين ينتهي.

وفي الليلة الأخيرة من عمرته، جلس في صحن الحرم يتأمل الطائفين، آلاف الوجوه تدور حول الكعبة، تحمل أمنياتها وآلامها وأسرارها ودعواتها التي لا يعلمها إلا الله، وبين تلك الوجوه، لمح امرأة ملثمة تسير مسرعة وسط الزحام، لم يستطع الجزم إن كانت واحدة منهن أم لا.

اختفت بعد لحظات بين الجموع، كما تختفي أشياء كثيرة في هذه الحياة، وبقي هو جالسًا في مكانه، ينظر إلى الطائفين، بينما كانت تلك الصورة تبتعد شيئًا فشيئًا، وتترك في قلبه أسئلة أكثر مما تترك إجابات.

صـورةٌ على الجـدار

حين طلب مني مدير التحرير أن أكتب قصة صحفية عن صاحب سلسلة المعارض الكهربائية الأشهر في البلاد، لم أتحمس كثيرًا. قلت له:

ألن تكون قصة نجاح كلاسيكية أخرى؟ فقر ثم كفاح ثم ثراء؟

رفع رأسه من فوق الأوراق، وحدّق في وجهي لحظة، ثم ابتسم ابتسامة غامضة، وقال:

ربما.

ثم أضاف:

لكنني أظن أنّ قصته لم تُكتب بعد.

خرجت من مكتبه وأنا أفكر في عبارته الأخيرة «لم تُكتب بعد...»، ما الذي يمكن أن يُخفيه رجل تنتشر صوره وأخباره في الصحف والإعلانات والاحتفالات؟

بعد أسبوعين من الاتصالات والمواعيد المؤجلة، جلست أخيرًا في مكتبه بأحد الفروع الرئيسية. كان المكان أنيقًا وفخمًا كما توقعت: شهادات تكريم، دروع تذكارية، صور مع مسؤولين ورجال أعمال، افتتاح فروع، أعمال خيرية، مقابلات صحفية وتلفزيونية، لكن عيني توقفت عند شيء آخر؛ صورة قديمة مُعلّقة على الجدار المقابل، تُظهر شابًا هزيلًا يقف خلف عربة خشبية صغيرة، وقد تراكمت عليها علب البسكويت وأكياس المكسرات وبعض الحلوى الرخيصة، صورة باهتة تكاد ألوانها تختفي تحت ثقل السنوات، ويبدو فيها الشاب كأنّه خرج من زمن آخر.

كل شيء في الصورة كان بسيطًا: العربة والثياب والشارع، حتى الابتسامة. سألته عنها، فنظر إلى الصورة كما ينظر المرء إلى شيء له خصوصية وحميمية لا حدّ لها، ثم قام ومسحها بيده برفق كما لو أنّه يربت على كتف صديق قديم. عاد إلى مكانه، وقال:

هل تعلم أنّ هذه الصورة معلّقة في مكاتب الإدارة في كل فروع الشركة؟

التقطت مغزى سؤاله:

ولم يسألك عنها أحد!

ضحك بخفّة، وقال:

طوال ثلاثين سنة تقريبًا، لم يسأل عنها أحد.

ثم التفت نحوي:

أما أنت فقد دخلت مباشرة من الباب الصحيح.

بدأ يحدثني عن العربة، كيف اشتراها، وكيف كان يدفعها من حي إلى آخر تحت شمس الصيف ومطر الشتاء، وكيف ادخر نقوده القليلة قرشًا فوق قرش، ثم أخبرني عن التاجر الذي شاركه لاحقًا، وعن الخطوات التي قادته إلى تأسيس أول معرض، ثم الثاني، إلى العاشر.

كنت أستمع بإعجاب، قلت وأنا أنظر إلى الصورة:

من الصعب أن يصدق أحد أنّ كل هذا بدأ من عربة صغيرة.

ابتسم قائلًا:

الناس ترى العربة، لكنها لا ترى ما كان خلفها من تعب وسهر وخوف وأمل وطموح وأحلام.

ثم أضاف بصوت هادئ:

ومع ذلك، فالعربة ليست بداية القصة.

رفعت رأسي مستغربًا:

ليست البداية؟!

وأدركت أنّ هناك بابًا آخر لم يُفتح بعد.

هزَّ رأسه، ثم قال:

هناك حياة أخرى قبل هذه الصورة.

ساد الصمت بيننا، أخذ نفسًا عميقًا، وأضاف:

سأخبرك كل شيء بشرط ألا تكتب أو تنشر ما سأقوله؛ ليس خجلًا من الماضي، وإنّما حفاظًا على مشاعر أولادي وأحفادي فالناس لا يرحمون.

وعدته، تنهد بعمق، ثم بدأ كلامه.

كنت في السادسة عشرة، غاضبًا من كل شيء؛ من المدرسة، ومن البيت، ومن الفقر الذي كنت أراه أكبر مما هو عليه. كنت أريد أن أحصل على المال بسرعة، أريد أن أصبح رجلًا قبل أوانه، فعملت في ورش ومخازن ومحال كثيرة، لكنني كنت أبحث عن صيد ثمين، فرصة ذهبية، ولذا كنت أترك كل عمل بعد أسابيع قليلة، إلى أن تعرفت ذات يوم إلى شاب متسوّل، كان يجلس قرب إشارة ضوئية مزدحمة، قال لي وهو يضحك:

الناس فيها الخير، تُحب أن تُعطي، وأكسبُ أكثر مما يكسبه أي عامل. هيا جرّب حظك مثلي وكن لي رفيقًا.

ظننتها مزحة، أو أنّه يبالغ، لكنها لم تكن كذلك، وبعد أيام كنت أجلس قرب إشارة ضوئية أخرى، أجر ساقيّ خلفي وأدّعي أنّني مشلول، أما الشاب الآخر فكان يؤدي دور الأعمى الأصم بإتقان مُذهل.

في البداية بدا الأمر سهلًا، كانت النقود تتساقط في الصندوق الصغير بسلاسة، وفي المساء كنت أعود بما يفوق ما كنت أجنيه من أي عمل سابق. كنت فرحًا بالكسب السريع المريح، لكن سرعان ما زالت تلك النشوة، وحلّ مكانها ثقل خيَّم على صدري لا أدري سببه، وكنت أشعر أنني أخسر نفسي أكثر كل يوم.

في أحد الأيام توقفت سيارة فاخرة عند الإشارة، فتحت فتاة صغيرة النافذة الخلفية. حدّقت في وجهي طويلًا، ثم مدّت يدها بورقة نقدية. كانت تبتسم ابتسامة طفل يظن أنّه يصنع معروفًا كبيرًا، مددت يدي لأخذها، لكن نظراتها سبقت الورقة، نظرات مليئة بالشفقة والعطف. انطلقت السيارة، وبقيت عيناي معلّقتين بها حتى اختفت، وفي تلك اللحظة شعرت أنني أتقلص، كأنّ شيئًا في داخلي انكسر.

عدت إلى البيت مساءً، وضعت النقود أمامي، وظللت أحدق فيها طويلًا، لم أفرح بها، ولم أستطع النوم.

بعد أيام قليلة رأيته؛ كان شيخًا طاعنًا في السن يدفع عربة صغيرة، يتصبب عرقًا، ويتوقف كل بضعة أمتار ليلتقط أنفاسه. راقبته من بعيد، ثم تبعته، كان يبيع بصعوبة، ويكسب بصعوبة، ويتعب بسرعة، لكنه حين يبتسم لأحد الزبائن كانت ابتسامته مملوءة بالرضا والحمد، ابتسامة مطمئنة، تشيع الرضا، مثل نسمة هواء رقيقة منعشة، ويتبعها

بالدعاء له بالصحة والعافية.

وسرعان ما لمعت في ذهني فكرة. اقتربت منه وسألته بعد تردد عن كُلفة العربة وما عليها من بضاعة، أخبرني وهو يكرمني بقطعة بسكويت، ودعا لي بالبركة والتوفيق والرزق الحلال.

أخذت أحسب في ذهني ما أدخره، فاكتشفت أنّ المال الذي جمعته من التسوّل يكفي لشراء عربة أفضل منها، وبضائع أكثر.

في تلك الليلة بقيت مستيقظًا حتى الفجر، كنت أسمع صوتًا واحدًا داخل رأسي، إن كان هذا الشيخ يستطيع، فما عُذرك أنت؟!

في اليوم التالي اشتريت عربة، وحمّلتها ببضائع كثيرة، ولم أعد إلى الإشارات الضوئية أو الرصيف أبدًا. لا أذكر أول يوم بعت فيه شيئًا، ولا أول ربح حققته، ولا أول زبون تعاملت معه، لكنني أذكر شيئًا واحدًا فقط؛ أذكر أنّني عندما دفعت العربة في أول يوم شعرت أنّ ظهري أصبح مستقيمًا، وأنّ الهواء الذي أستنشقه صار عليلًا، كأنّني استعدت شيئًا ضاع مني.

توقف عن الكلام، واتجهت عيناه نحو الصورة المعلّقة على الجدار، تبعتهما بعيني، وبدا لي أنّ الرجل في الصورة لا يشبه صاحب المعارض الجالس أمامي، ولا يشبه المتسوّل الذي كان يحدثني عنه، كأنّ الصورة أُلتقطت في المسافة الفاصلة بين الشخصين؛ بين السقوط والنهوض، بين الخجل والكرامة.

حين غادرت مكتبه كان المساء قد اقترب، رافقني إلى الباب، وتبادلنا كلمات الوداع، ثم عدت أنظر إلى الصورة للمرّة الأخيرة. كانت ما تزال معلّقة في مكانها؛ شاب نحيل يقف خلف عربة متواضعة، صورة عادية جدًا، لكنني هذه المرة لم أر فيها عربة، ولا بضائع، ولا بداية مشروع صغير، رأيت شابًا يمدُّ يده إلى نفسه الغارقة في الظل، وينتشلها قبل أن تغرق إلى الأبد.

وعندما وصلت إلى الصحيفة، فهمت أخيرًا ابتسامة مدير التحرير الغامضة، دخلت مكتبه، ومنحته ابتسامة غامضة أسعدته كثيرًا، وذهبت إلى مكتبي لأكتب قصة نجاة رجل لا قصة نجاحه، قصة لم تبدأ بالعربة، وإنّما باللحظة التي قرر فيها صاحبها أن يستعيد نفسه.

بائِعُ الكلمات

لم يكن أحد يعرف من أين يأتي، ولا إلى أين يمضي بعد أن يغيب عن الأنظار. كان يظهر فجأة كما لو أنّه خرج من ظل شجرة قديمة، طويل القامة إلى حدّ يلفت النظر، نحيل حتى تكاد الريح تطويه بين أجنحتها، يتوكأ على عصا أطول منه بقليل، ويسير بخطوات هادئة لا تشبه خطوات المتعجلين الذين تبتلعهم ساعات الدوام.

كان يعرف المدارس أكثر مما يعرفها موظفو مديرية التربية. يزور واحدة اليوم، وأخرى بعد أيام، حتى صار وجهه مألوفًا في غرف المعلمين، وإن بقي اسمه مجهولًا. يقف عند الباب، يبتسم ابتسامة واسعة، ويقول بصوت يحمل شيئًا من الدعابة القديمة:

السلام عليكم... هل تسمحون لضيف فقير أن يجلس بينكم لأمر خير؟

ولم يكن في ملامحه ما يدعو إلى الريبة. كانت فيه خفة غريبة، كأنّ الحياة، رغم ما فعلته به، لم تستطع أن تنتزع منه حسّ المزاح. يجلس بينهم، فيسأل أحدهم عن امتحانات الطلبة، ويمازح آخر بشأن الشيب الذي غزا رأسه، ويضحك مع الجميع حتى ينسى الحاضرون أنّهم يستقبلون رجلًا لا يعرفونه.

ثم يستأذن بالكلام، لم يكن يخطب كما يفعل الوعاظ، ولا يتحدث كما يتحدث المحاضرون. كان يحكي. يلتقط حكاية صغيرة من الطريق، أو عبارة سمعها من طفل، أو مشهدًا عابرًا رآه في السوق، ثم ينسج منها كلامًا يمضي إلى القلوب من أقصر الطرق. أحيانًا يحدثهم عن الكرامة، وأحيانًا عن الشيخوخة، وأحيانًا عن معلم غرس كلمة في قلب تلميذ فأنبتت عمرًا كاملًا. وكانت كلماته تبدو بسيطة، لكنها تظل معلّقة في الأذهان بعد انصرافه، كما تبقى رائحة المطر في الأرض بعد أن تجف.

وحين يفرغ، ينظر إليهم بعينين فيهما حياء لا تخطئه العين، ويقول:

إن رأيتم أنني قد منحتكم شيئًا، فأكرموني بما تيسر. لا أطلب إلا تلك العملة المعدنية التي تثقل جيوبكم أكثر مما تنفعكم. وإن رأيتم أنّ كلامي لا يساوي شيئًا... فالعنوني، أو ارجموني، ولن ألومكم.

وكان يعرف جيدًا أن أحدًا لن يلعنه.

تتحرك الأيدي تلقائيًا إلى الجيوب. يخرج هذا قطعة نقدية، ويزيدها ذاك بورقة صغيرة، ويتظاهر ثالث بأنّه يبحث في محفظته، ثم يدفع إليه أكثر مما كان ينوي. أما هو، فيجمع ما وصل إلى يده كما يجمع الفلاح حبات القمح المتناثرة، ويشكر كل واحد منهم باسمه إن كان يعرفه، ثم يرفع كفيه بدعوات صادقة تجعل بعضهم يشعر أنّ ما دفعه عاد إليه مضاعفًا قبل أن يغادر الرجل المكان.

ظل سنوات يفعل ذلك، وكان اسمه أكثر ما يثير الحيرة، وكلما سأله أحدهم:

ما اسمك يا عم؟

اعتدل في جلسته، وربّت على عصاه، وقال بثقة طفل لا يعرف الشك:

أنا شمس التبريزي من نسل المعلم الأكبر شمس التبريزي.

فإن صادف من يعرف هذا الاسم، اكتفى بهزة رأس وإعجاب صامت، وكأنّ الرجل يحمل سرًا لا ينبغي إفساده بالأسئلة. وإن كان السائل لا يعرف مَنْ هو شمس التبريزي، ابتسم مرتبكًا، وصرف الحديث إلى شيء آخر، حتى لا يفتضح جهله.

أما المعلمون، فقد كانوا يعرفون الحقيقة التي لا يخفيها هو أيضًا، أنّه متسوّل. لكن أحدًا لم يكن قادرًا على وضعه مع بقية المتسولين.

قال أحد المعلمين ذات مرة، وهو يراقب الرجل وهو يبتعد:

الغريب أنّه لا يأخذ الصدقة، ولكن يجعلنا نشعر أننا اشترينا شيئًا.

هز زميله رأسه وقال:

بل نحن من نأخذ. هو فقط يعرف كيف يجعل العطاء متبادلًا.

وفي أحد السنوات، طال غيابه؛ مرّ أسبوع، ثم شهر، ثم انتهى الفصل الدراسي، ولم يطرق باب غرفة المعلمين أحد يحمل تلك العصا الطويلة.

في البداية ظنوا أنّه غيّر طريقه إلى مدارس أخرى، ثم بدأ السؤال عنه ينتقل من مدرسة إلى أخرى، وكل الإجابات كانت متشابهة: «لم نره منذ مدة». وبقي غيابه معلقًا بلا تفسير

وفي حديث بين معلمين، تذكرا بائع الكلمات، وشوقهم إليه ولأحاديثه الجميلة، سأل أحدهم:

أين تراه اختفى هذا الرجل؟ لا يعقل أن يختفي هكذا دفعة واحدة ولا يعرف أحد عنه شيئًا. ألم يكن ملء السمع والبصر؟

ابتسم الآخر وقال:

كنا نظنه مقيمًا لا يتركنا، وسيعود بين وقت وآخر.

قال الأول:

لا نعرف قيمة الأخيار إلا بعد فقدهم، وقد كان صاحبنا قامة سامقة على الرغم من أنّه متسوّل، ولكنه متسوّل ذكي ومبدع.

قال المعلم الثاني:

صدقت. وأظنه ترك الديار، وهاجر ليبحث عن جلال الدين الرومي الجديد، ليكتب وإياه قواعد العشق الأربعين.

ابتسما وهما يتحسران على أيام خلت، وجلسات جميلة اندثرت، ورحيل رجل لا يُعوّض.

أُجـرةُ الجـوع

حين بلغت أمُّ سالم نهاية عقدها السادس، لم يعد جسدها قادرًا على احتمال ما اعتاد عليه طوال العمر. كانت قد أمضت سنوات طويلة في خدمة البيوت؛ تنظف وتغسل وتطبخ وتتسوّق وتكّوي وترتب وتُعين أصحاب المنازل على شؤونهم اليومية، لكنها أخذت تضعف شيئًا فشيئًا، فصار صعود الدرج مهمة شاقة، وأصبحت الأعمال التي كانت تنجزها في ساعة تحتاج منها ساعات.

في البداية، كان أصحاب البيوت يتغاضون عن بُطئها تقديرًا لعشرة السنين، ثم بدأوا يعتذرون منها واحدًا تلو الآخر، خاصة وأنّها من الجيل القديم الذي لا يستطيع مواكبة التغيّرات المتسارعة في كل شيء، في ظلّ توافر أدوات وأجهزة وتقنيات للقيام بالمهام البيتية بشكل أسرع وأفضل وعلى مدار الساعة. لم يكن في الأمر قسوة مقصودة، لكنه كان كافيًا لقطع آخر خيوط الرزق التي تتعلّق بها.

وجدت نفسها وحيدة بلا مُعيل، تتأمّل ما تبقى من نقودها وهي تتناقص يومًا بعد يوم، وحين ضاقت بها السبل، خطرت لها فكرة كانت تستحي حتى من التفكير بها، قاومتها أيامًا طويلة، ثم استسلمت أخيرًا للجوع.

اختارت مدينة أخرى بعيدة عن معارفها، وحملت معها ما بقي من كرامتها، ثم جلست على أحد الأرصفة المزدحمة تمدُّ يدها للمارّة.

لكن المفاجأة الأولى لم تتأخر؛ فما إن استقرت في مكانها دقائق معدودة، حتى جاءت امرأة متسوّلة وأجبرتها على المغادرة. انتقلت إلى شارع آخر، فطلب منها رجل متسوّل الرحيل. ثم تكرر الأمر في مكان ثالث ورابع وخامس. بدا الأمر غريبًا إلى حدٍّ جعلها تشك أنّها دخلت عالمًا له قوانينه الخاصة التي تجهلها.

بعد ساعات من الحيرة والتشتت، اكتشفت أنّ الأرصفة موزّعة كما تُوزّع المحال التجارية «لكل رصيف صاحبه»، وأنّ لكل متسوّل منطقة نفوذ لا يجوز لغيره الاقتراب منها، ولم تكن تلك الحدود العجيبة قائمة على تفاهمات عفوية، بل على نظام كامل يديره شخص يطلقون عليه لقب «المعلم».

استوقفتها الكلمة أكثر مما استوقفتها الفكرة نفسها. لم يخطر لها يومًا أن للتسوّل إدارةً، وسلطةً، ولوائح غير مكتوبة.

انتظرت «المعلم» الذي يتحدثون عنه، وحين حضر إلى مكانه الذي يُدير منه أعماله، شعرت أنّها تقف أمام صاحب مؤسسة حقيقية. راقبها طويلًا، وراح يقلّب النظر في وجهها وهيئتها كما لو أنّه يدرس طلب توظيف، ثم وافق على منحها مكانًا للعمل، مقابل أجرة يومية محددة.

كانت الدهشة أكبر من أن تُصدّق؛ هي التي جاءت تبحث عن صدقة، وجدت نفسها مُطالبة بدفع رسوم لقاء حقها في طلب الصدقة، رسوم أشبه برسوم «مزاولة مهنة» أو «أجرة رصيف»!

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ؛ فقد قدّم لها «المعلم» ما يشبه التعليمات المهنية؛ نصائح تتعلّق بالملابس المناسبة، وطريقة الجلوس، ولغة الجسد، وأساليب التواصل، ونغمة الكلام، والعبارات والجمل الأساسية (المفتاحية) المستخدمة، والعاهة التي يمكن أن تزيد من تعاطف المارة. كان يتحدث بثقة الخبير الذي أمضى سنوات في دراسة السوق ومعرفة مزاج الزبائن.

خرجت من عنده مُثقلة بالاستغراب، لكنها أقنعت نفسها بأنّ الرجل لا بُدَّ أنّه يعرف ما لا تعرفه، ولو لم يكن الأمر مجديًا لما استطاع كل هؤلاء المتسولين الاستمرار في العمل تحت إدارته.

كان الوقت صيفًا عندما بدأت أيامها الجديدة، كانت تستيقظ باكرًا، وتتجه إلى مكانها المحدد، وتمضي ساعات طويلة تحت الشمس والغبار، وحين تعود مساءً، تجلس لتُحصي ما جمعته.

بعد أيام قليلة، اكتشفت أنّ معظم ما تحصل عليه يذهب إلى «المعلم»، وما يبقى لها فلا يكاد يكفي حاجاتها الأساسية. كانت تعمل طوال النهار من أجل فُتاتٍ لا يزيد كثيرًا عما كانت تحصل عليه قبل أن تبدأ.

ومع مرور الوقت، بدأت تشعر بأنّها لم تخرج من دائرة الفاقة والحاجة الملّحة، ولكنها انتقلت من باب إلى باب آخر. الفرق الوحيد أنّها صارت تدفع ضريبة جديدة لم تكن تعرف بوجودها.

حاولت أن تستعطف «المعلم»؛ ليخفف عنها قيمة الأجرة ولو مؤقتًا ريثما تستقر أوضاعها وتتقن مهنتها، لكن طلبها ضاع وسط بروده المعتاد. لم يكن يرى في الأمر ظلمًا، بل جزءًا من نظام صارم راسخ اعتاد عليه الجميع.

عادت يومها إلى غرفتها الصغيرة البائسة، وجلست طويلًا تُحدّق في الجدار، تذكّرت سنوات الخدمة في البيوت، وتذكّرت تعبها القديم، وعمرها الذي ضاع دون سند أو معين، وفكّرت في المفارقة القاسية التي قادتها إليها الحياة؛ لقد كانت تظن أنّ التسوّل هو قاع الحاجة الذي لا قاع بعده، لكنها اكتشفت أنّ للقاع طبقات أخرى أعمق مما تخيلت.

في صباح اليوم التالي، حملت أشياءها القليلة وغادرت. لم تكن تعرف إلى أين ستذهب، كل ما كانت تعرفه أنّها لم تعد قادرة على دفع أجرة للجوع نفسه.

ركبت حافلة متجهة إلى مدينة أخرى، وجلست قرب النافذة تراقب الطرق الممتدة أمامها. كانت المباني تتراجع خلف الزجاج، والناس يختفون تباعًا، بينما ظلّ سؤال واحد يرافقها طوال الرحلة: كيف استطاع البشر أن يُحوّلوا حتى البؤس إلى مهنة، والحاجة إلى سوق، والجائع إلى زبون يدفع أجرة جوعه؟!

لم تجد جوابًا، وكانت الحافلة تواصل سيرها نحو مدينة جديدة، فيما كانت هي تمضي نحو مصير لا تعرف عنه شيئًا، سوى أنّها ما زالت تبحث فيه عن إنسانية أقل قسوة من تلك التي تركتها وراءها. وكّلت أمرها إلى الله، وسرقها وَسَنٌ من شدّة تعبها وإحباطها وضياعها.

صديقي المتسوّل

كان صديقي منذ أيام الجامعة، واحدًا من أولئك الذين يصعب تفسير سبب محبتهم، ولا أظنني فهمته يومًا على نحو كامل. لم نكن متشابهين في شيء تقريبًا؛ أنا أحب النظام، وأؤمن بأنّ للحياة مسارات واضحة ينبغي السير فيها، وهو كان يرى الطرق المعبّدة نوعًا من الفخاخ الأنيقة. حتى في سنوات الدراسة كان يتعامل مع القوانين والأنظمة كما لو أنها اقتراحات يمكن تجاهلها، لا تعليمات واجبة التنفيذ.

بعد التخرج تفرّقت بنا السبل، التحقت أنا بوظيفة مستقرة، وبقيت فيها حتى اليوم. أما هو فقد أعلن تمرده على فكرة الوظيفة كلها، كان ينظر إليها كما ينظر السجين إلى نافذة زنزانته. كان يقول إنّ الإنسان يولد حرًا، ثم يقضي عمره يبحث عمن يقيده براتب آخر الشهر، وما الوظيفة إلا شكل من أشكال العبودية، وأنّ الموظف يبيع ساعات عمره بالتقسيط، ويقبض ثمنها آخر الشهر. كنا نضحك من مبالغاته، لكنه لم يكن يمزح.

رفض كل فرصة عُرضت عليه، ثم جرّب أعمالًا صغيرة كثيرة؛ فباع الكتب المستعملة والأشياء على الأرصفة، وأعطى دروسًا خصوصية، وحاول أن يبدأ مشاريع صغيرة بمفرده، لكنها جميعًا انتهت بسرعة، كأنّ الحياة كانت تصرّ على إغلاق الأبواب في وجهه

وبعد أشهر من التخبط، جاءني ذات يوم وأخبرني، ببرود أثار غضبي، أنّه قرر أن يجرب التسوّل. ظننتها مزحة ثقيلة، لكنه فعلها ولم يتردد؛ غيّر هيئته، ارتدى ملابس بالية، أرخى كتفيه، وتعلّم كيف ينظر إلى الناس بعينين متعبتين، وعاد إلى بيته منذ اليوم الأول بمال أكثر مما كان يجنيه من أي عمل سابق.

كان يقول إنّه سيجرب الأمر أيامًا معدودة، لكنه اكتشف أنّ المال يأتيه بسهولة لم يعرفها من قبل. وهكذا تحوّلت التجربة إلى مهنة، ثم إلى أسلوب حياة. حاولت كثيرًا أن أثنيه، حاول أهله أيضًا، غضبوا، توسلوا، هددوا، قاطعوه. شيئًا فشيئًا انسحب الجميع من حياته، وبقيت أمه وحدها تفتح له الباب كل مساء، وبقيت أنا أبحث عنه كلما طال الغياب

لم أفهم سر تلك الصداقة أبدًا. ربما لأنني كنت أرى خلف مظهره البائس رجلًا مختلفًا. كان يعود من يومه الطويل في الشوارع ليقرأ الروايات والكتب الفكرية حتى منتصف الليل. وحين أجلس معه أشعر أنني أحاور شخصًا حاد الذكاء، واسع الاطلاع، لا متسوّلًا ينتظر الصدقات عند إشارات المرور.

لم أكن أعرف أين يتسوّل، ولم أسأله، ولكن في أحد الأيام، مررت بالقرب من مكانه، رأيته على بعد أمتار، انزويت جانبًا، رأيته في ملابسه الرثة، وهيأته المزرية، يستجدي الناس، ويمدُّ يده بمهانة. هالني ما رأيت، وبكيت يومها على صديقي، كيف يقبل على نفسه هذا الإذلال تحت أي ذريعة كانت. لم أستطع أن أصارحه بما رأيت، ولم يفارق خيالي المشهد، وخاصة عندما أراه فيعود كأنّه حدث للتو.

كنا نلتقي على فترات متباعدة. أحيانًا كل شهرين، وأحيانًا تمر سنة كاملة قبل أن نجلس وجهًا لوجه. وفي إحدى تلك الأمسيات عاد الحديث إلى موضوعه القديم.

قلت له وأنا أراقب فنجان القهوة بين يديه:

أما زلت مصرًا على هذه الحياة؟

رفع رأسه نحوي، وحدّق في وجهي طويلًا قبل أن يبتسم:

أي حياة تقصد؟ حياة التسوّل؟

أومأت، فقال بهدوء:

المشكلة أنّك ما زلت تظن أنّ المتسوّلين يجلسون على الأرصفة فقط.

ثم أخذ يشرح فكرته التي سمعتها منه أكثر من مرّة، لكنني في تلك الليلة أصغيت إليها بشكل مختلف. كان يرى أنّ معظم الناس متسوّلين، يمدّون أيديهم بطريقة أو بأخرى؛ بعضهم يطلب المال، وبعضهم يطلب الإعجاب، وبعضهم يطلب التصفيق أو الحب أو الشهرة أو القرب من أصحاب النفوذ. قال إنّ مواقع التواصل الاجتماعي ليست سوى ساحات واسعة للتسوّل، وإنّ كثيرين يعيشون على فتات الاهتمام كما يعيش هو على فتات النقود. ثم مضى يعدد أمثلة لا تنتهي، حتى شعرت أنّ العالم كله تحوّل في نظره إلى ساحة كبيرة للمتسولين.

كنت أعارضه بين حين وآخر، لكنه كان يواصل حديثه بثقة من يحفظ الطريق جيدًا. ثم قلت له:

ومع ذلك، يبقى هناك فرق؛ أنت تستجدي المال، وهم يستجدون أشياء أخرى.

ضحك طويلًا حتى اغرورقت عيناه بالدموع:

جميل جدًا. إذن اتفقنا على المبدأ واختلفنا على التفاصيل. كلها أسماء مختلفة للجوع ذاته يا صديقي، ولكن اعلم أنّ الفرق الوحيد أنني أكثرهم صدقًا؛ فأنا لا أُخفي يدي وهي ممدودة.

وأردف بعد لحظة:

على الأقل أنا أعرف ماذا أريد بالضبط؛ آخذ ما يعطيني إياه الشخص وأمضي، ولا أبقى مدينًا له بشيء، أما الذين يتسوّلون الإعجاب والحب والاعتراف، فغالبًا يقضون أعمارهم أسرى لمن منحهم ذلك.

ظلّ صوته يتردد في رأسي بينما كنت أبحث عن رد مناسب. لم أقتنع تمامًا، لكنه نجح كعادته في زعزعة يقيني، وحين شعر أنّه أنهى مرافعته، نهض من مكانه وقال:

كفى فلسفة لهذا المساء.

قلت ضاحكًا:

إذًا سأكافئك بعشاء يليق بانتصارك.

هز رأسه ساخرًا:

لا أريد كرمك ولا منتك.

ثم نظر إلى ساعة يده القديمة واستدار نحو الباب، وقبل أن يغادر التفت إليّ قائلًا:

بالمناسبة؛ إذا احتجت يومًا إلى أي مبلغ من المال، فلا تتردد في الاتصال بي، فأنا صديقك ولن أخذلك إن شاء الله.

ضحكنا معًا. صافحني ومضى.

وقفت عند النافذة أراقبه وهو يبتعد في الشارع المظلم. كان يمشي بخطوات هادئة، كأنّ شيئًا لا يثقل خطاه في هذا العالم.

مرّت سنوات بعد تلك الليلة، سنوات لم أره خلالها إلا مرّات قليلة، بسبب انتقالي إلى مدينة أخرى. ثم جاء اليوم الذي احتجت فيه فعلًا إلى المال، لم تكن أزمة كبيرة بالمعنى المعتاد، لكنها كانت من تلك اللحظات التي تشعر فيها بأنّ الأرض تميل قليلًا تحت قدميك، تراكمت التزامات مفاجئة، وتأخر راتبي، وضاقت الخيارات كلها في وجهي.

جلست في مكتبي أتأمل الأرقام المبعثرة أمامي، وفجأة تذكرت جملته: «إذا احتجت يومًا إلى أي مبلغ من المال، فلا تتردد».

ابتسمت رغم ضيقي، أخرجت هاتفي وبحثت عن رقمه، كان مغلقًا. حاولت مرة ثانية وثالثة. مغلق.

سألت بعض المعارف عنه، لم يعرف أحد شيئًا مؤكدًا. قيل إنّه انتقل إلى مدينة أخرى، وقيل إنّه مرض، وقيل إنّه اختفى كما عاش دائمًا؛ خارج خرائط الناس.

بعد أسبوع تقريبًا، زرت أمه، كانت قد شاخت كثيرًا. استقبلتني بصمت طويل، ثم أدخلتني إلى غرفة صغيرة ما زالت تحتفظ برائحته، هناك أخبرتني أنّه توفي قبل أشهر. قالت ذلك ببساطة مؤلمة، كما لو أنّها تكرر حقيقة استنفدت دموعها كلها. لم أعرف ماذا أقول.

أخبرتني أنّه جمع مالًا كثيرًا، كان يوزعه على الفقراء والأيتام أولًا بأول، لم أتمالك دهشتي:

ولكنه كان يعيش في فقر!

نعم يا ولدي، كان يعيش فقيرًا باختياره.

ثم مدّت يدها إلى درج قديم وأخرجت ظرفًا أصفر، وقالت:

ترك هذا عندي قبل وفاته بوقت قصير، وقال: إذا جاء صديقي يومًا فأعطه إياه.

فتحت الظرف، وجدت داخله مبلغًا من المال، أكبر بكثير مما توقعت، ومعه ورقة صغيرة بخطه المرتب: «أعرف أنّك ستضحك عندما تقرأ هذا. لكنني قلت لك يومًا إنّ صديقك لن يخذلك. لا تقلق؛ هذا ليس منّة أو دينًا. إنّها هدية من صديق إلى صديقه».

جلست أحدق في الكلمات طويلًا، وخارج النافذة كان المساء ينحدر ببطء فوق البيوت القديمة، والريح تعبث على سجيتها. لحظتها اضطربت أفكاري وتشتت ذهني، ولم أعرف من منا كان المتسوّل حقًا.

سَقْفٌ لا يَتسرّبُ منه المَطر

لم يكن أحد في الحي يذكر أنّه رأى سالمًا يستقر في عمل أكثر من بضعة أشهر. كان يبدأ كل وظيفة بحماس عابر، ثم لا يلبث أن يضيق بها ذرعًا. عمل في ورشة حدادة، ثم في متجر للمواد الكهربائية، ثم في مطعم شعبي، ثم في مستودع للمواد الغذائية، لكن شيئًا في داخله كان يرفض الانضباط اليومي الذي يلتزم به الناس عادة. لم يكن شريرًا ولا مخادعًا، بل رجلًا كسولًا على نحو صريح، يرى أنّ العالم يبذل جهدًا أكبر مما يستحق. ومع مرور السنوات وجد نفسه وقد تجاوز الأربعين بقليل، وحيدًا وفقيرًا، بينما كانت أعمار الآخرين تمتلئ بالوظائف والبيوت والأبناء.

في أحد الأيام، استوقفه مشهد امرأة شابة بثياب متواضعة تجلس قرب إشارة ضوئية مزدحمة تمدّ يدها للمارة ولركاب السيارات. لم يلفت نظره جمالها ولا ملامحها بقدر ما لفتته تلك السكينة الغريبة التي كانت تغلّف وجهها رغم التعب.

راقبها أيامًا طويلة، لم يكن يقصدها في البداية، بل كان يراقب الفكرة نفسها، فكرة أن يعيش الإنسان من دون أن يحمل حجرًا، أو يطرق مسمارًا، أو يلهث خلف مدير غاضب. ثم سمعها ذات مساء تتحدث مع متسوّلة أخرى عمّا جمعته من المال في ذلك اليوم. عاد إلى غرفته الصغيرة وهو يعيد الحسابات في رأسه مرّات عديدة. كان المبلغ الذي سمعه أكبر مما حصل عليه في جميع الأعمال التي تنقّل بينها طوال حياته.

تقرّب منها ببطء، وصار يبادلها الحديث كلما مرّ بالمكان، وحين عرض عليها الزواج لم يقدّم لها وعودًا كبيرة، ولم يرسم لها صورة زائفة عن المستقبل. قال لها ببساطة إنّه لا يملك مالًا ولا وظيفة مستقرة، لكنه يستطيع أن يوفر بيتًا صغيرًا وسقفًا يحميها من الحر والبرد. فكرت طويلًا قبل أن توافق. لم توافق عن حب أو وعد برفاهية، لكنها كانت متعبة من الشارع، وكان الأمان يبدو لها حلمًا أكبر من الحب نفسه.

لم يكن زواجًا يشبه القصص التي تسمعها النساء في المسلسلات، لم يكن هناك فستان أبيض، ولا صالة أفراح، ولا غناء ولا رقص، ولا صور تذكارية. كان مجرد انتقال من رصيف إلى البيت المتواضع الذي استأجره في أحد الأحياء الشعبية، وفي الليلة الأولى وقفت تتأمل الجدران المتشققة قليلًا، والأثاث القديم، والنافذة الصغيرة المطلة على زقاق

ضيق. لم يكن المكان جميلًا، لكنه كان هادئًا، لم تسمع فيه صراخًا، ولم تشعر أنّ أحدًا سيطردها مع أول خلاف، لذلك نامت تلك الليلة بطمأنينة لم تعرفها منذ سنوات.

بعد أقلّ من عام جاءت زوجة ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة. كان سالم يكرر الحديث نفسه مع كل واحدة؛ لا وعود برّاقة، ولا أحلام كبيرة، بل بيت صغير وحياة بسيطة، والغريب أنّهن جميعًا وافقن بعد تردد طويل. لم يكن ما يجمعهن الحب، بل التعب، ولكل واحدة منهن قصة مختلفة، لكنها تنتهي عند النقطة ذاتها؛ الحاجة إلى مكان آمن تستريح فيه الرّوح من قسوة الأيام وبرودة الوحدة.

كانت الأولى قد حلمت يومًا بأن تصبح معلمة للأطفال، لكنها اضطرت إلى ترك الدراسة بعد وفاة والدها. والثانية كانت مهووسة بعلب الأدوية، تحفظ أسماء لا تعرف معناها ولا لِمَ تُستخدم، وتتمنى أن تصبح صيدلانية ذات يوم، بينما كانت الثالثة ترسم الوجوه في دفاتر سرية تخبئها عن الجميع. أما الرابعة فكانت أكثرهن صمتًا؛ حتى أحلامها القديمة كانت ترفض الحديث عنها، كأنّها دفنتها في مكان بعيد وأغلقت فوقها الباب.

مرّت السنوات، وتقلصت الأحلام شيئًا فشيئًا. في البداية كانت الأحاديث تدور حول ما تود كل واحدة أن تكونه، ثم أصبحت تدور حول ما تحتاج إليه، ثم انتهت إلى أحاديث الخبز والكهرباء وأسعار الدواء. ومع مرور الوقت لم يعد الغد موضوعًا للنقاش أصلًا، صار يكفي أن يمر اليوم بسلام.

كان البيت صغيرًا على خمس أرواح؛ غرفتان وصالة ومطبخ وحمام واحد؛ غرفة لسالم وللزوجة التي عليها الدور، وغرفة للزوجات الأخريات، ومع ضيق المكان، لم يكن أحد مستعجلًا لمغادرته. في الصباح تخرج النساء الأربع إلى أماكنهن المعتادة للتسوّل في الشوارع والأسواق، ويبقى سالم في البيت، يطبخ الطعام، ويشتري حاجات المنزل من المال الذي يعدن به آخر النهار، أما بقية أعمال البيت فكانت تتوزع بالتناوب بين الزوجات وفق نظام استقر مع الأيام حتى صار جزءًا من حياتهن.

وكان أهل الحي ينظرون إلى البيت باستغراب؛ بعضهم يسخر من الرجل الذي يعيش على ما تجنيه زوجاته، وبعضهم يشفق عليهن، وبعضهم يعجز عن فهم السر الذي يجعل هذا البيت خاليًا من المشكلات تقريبًا. أما سكانه أنفسهم فلم يكونوا يملكون تفسيرًا واضحًا، لم يكونوا سعداء تمامًا، ولم يكونوا تعساء أيضًا. ويبدو أنّ هناك شيئًا يشبه التفاهم الخفي كان يربط بين النساء الأربع، ربما لأنّ الحياة لم تمنحهن كثيرًا من الخيارات، فصرن أكثر

ميلًا إلى التسامح، وربما لأنّ كل واحدة منهن كانت تعرف مقدار الخسارات التي تحملها الأخريات في صدورهن، فكانوا يعيشون في منطقة رمادية بين الرضا والاستسلام، بين القناعة والاعتياد، حتى إنّ الحدود بين هذه المشاعر كانت تتلاشى أحيانًا.

مضت خمس عشرة سنة على تلك الحال، ولم يُرزق البيت طفلًا واحدًا. في البداية أقلقهم الأمر، ثم أحزنهم، ثم اعتادوه كما اعتادوا أشياء كثيرة. شيئًا فشيئًا صار الصمت هو الطفل الوحيد الذي يكبر بينهم.

في إحدى الليالي الشتوية العاصفة انقطعت الكهرباء عن الحي كله. اجتمعوا حول مدفأة صغيرة في الصالة، بينما كان المطر يضرب النوافذ بعنف. تحدثوا في أمور شتى، ودون أن يشعروا، عاد الحديث إلى الأحلام القديمة؛ تحدثت الأولى عن المدرسة التي كانت تتمنى أن تعمل فيها، وروت الثانية بعض طرائف علب الأدوية التي ما زالت تذكرها، ثم أخرجت الثالثة دفترًا قديمًا امتلأت صفحاته برسومات وجوه مجهولة، أما الرابعة فاكتفت بالاستماع، ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة لم يفهم أحد معناها.

جلس سالم بينهن صامتًا، كان ينظر إلى الوجوه التي عاش معها سنوات طويلة وكأنّه لم يرها من قبل، أدرك فجأة أنّه يعرف تفاصيل حياتهن اليومية أكثر مما يعرف حيواتهن الحقيقية، يعرف أيهن تفضل السكر في الشاي، وأيهن تستيقظ قبل الفجر، وأيهن تخاف من القطط، وأيهنّ ما زالت تحلم بأمها. شعر بشيء يشبه الوخز في قلبه، لم يكن ندمًا واضحًا، ولا حسرة كاملة، مجرد شعور غامض بأنّ هؤلاء النسوة لم يجمعهن القدر في هذا البيت لأنّهنّ وجدن ما كن يحلمن به، بل لأنّ الأحلام كلها ضاقت حتى انتهت إلى هذا السقف المنخفض.

دوّى الرعد قريبًا، فسكت الجميع لحظة، وبعد أن عاد صوت المطر يملأ المكان، قالت الزوجة الرابعة بهدوء وهي تنظر إلى النافذة:

الغريب أنّني كنت أظن دائمًا أنّ حياتي ستكون مختلفة.

لم يجبها أحد، ظلت الكلمات معلّقة في الهواء مثل بخار الشاي المتصاعد من الأكواب، ثم رفعت رأسها نحو السقف، وبقيت تحدّق فيه طويلًا، وفي يقينها أنّ خمستهم يشاركونها ظنها، ولكن لا جدوى من نبش أحلام مستحيلة، فالأحلام جراح أحيانًا. كان المطر يهطل بغزارة في الخارج، لكن السقف ظل متماسكًا لا يتسرّب منه شيء.

خارج البيت كانت المدينة تغرق في ليل بارد ومبلل، أما في الداخل، فكان الجميع صامتين، ينظرون إلى أكواب الشاي وإلى البخار الذي يرتفع ببطء نحو السقف، قبل أن يتلاشى في العتمة.

حارسُ الذّاكرة

حين اتصل بي أبو جميل طالبًا أن أقابله في بيته لأكتب سيرته الذاتية، ظننت أنّ الأمر لا يعدو كونه عملًا جديدًا من الأعمال التي أقتات منها منذ سنوات، فقد اعتدت بصفتي كاتبًا شبحًا، أن أكتب للآخرين سيرهم الحياتية كما يحبون أن تُروى، لا كما عاشوها بالضرورة. كنت أستمع إلى ذكرياتهم وربما خيالاتهم، وأرتب فوضاها، وأملأ الفراغات بما يجعل الحكاية أكثر اتساقًا وإقناعًا، ثم أعود إلى بيتي مُحمّلًا ببعض المال وقليل من التعب. أما الأسماء التي تُزيّن الأغلفة، فلم يكن اسمي يومًا من بينها. لهذا لم أتردد في قبول الموعد، لكنني ترددت كثيرًا بعد أن وصلت.

لم يكن بيت أبو جميل يشبه شيئًا مما تخيلته طوال الطريق. كنت أتوقع شقة متواضعة في حي شعبي، أو غرفة ضيقة فوق سطح بناية قديمة، أو على الأقل بيتًا يترك للفقر علامة واضحة على جدرانه، لكنني وجدت نفسي أمام بوابة حديدية أنيقة، قادتني إلى بيت كبير جميل، تُحيط به حديقة واسعة مليئة بالأشجار والأزهار في تشكيل هندسي بديع، وتنساب في أرجائه سكينة غريبة.

كان كل شيء أكثر اتساعًا وجمالًا مما ينبغي لرجل عرفت لاحقًا إنّه قضى أكثر من نصف عمره متسوّلًا. غير أنّ أكثر ما أثار دهشتي لم يكن البيت ولا الحديقة، وإنّما المكتبة التي احتلت جدران غرفة واسعة أقرب إلى قاعة. لم أرَ في حياتي مكتبة منزلية بهذا الحجم إلا نادرًا؛ آلاف الكتب كانت تتراص فوق الرفوف، لكن شيئًا ما فيها كان مختلفًا، لم تكن كتبًا اشتريت دفعة واحدة أو جمعت وفق خطة واضحة، بل بدت كأنّها وصلت إلى هنا فرادى، متعبة، بعد رحلات طويلة.

استقبلني أبو جميل بنفسه، كان رجلًا سبعينيًا ممتلئ الوجه، هادئ النظرات، يرتدي ثيابًا بسيطة لكنها أنيقة. صافحني بحرارة، ثم قادني إلى غرفة الجلوس، جلس قبالتي، وبدأ يحدثني عن مشروع الكتاب، وحين أخبرني، بلهجة هادئة لا تخلو من فخر خفي، أنّه أمضى أكثر من أربعين عامًا متسولًا، شعرت بأنّ شيئًا ما انكسر في الحماسة القليلة التي جئت بها. أغلقت دفتري، واعتذرت له بلطف، وقلت إنني لا أظن أنّني الشخص المناسب لهذه المهمة.

لم يحاول إقناعي، لم يقل إنّ حياته استثنائية، ولم يعدد إنجازاته، ظلّ يتحدث بهدوء.

أخبرني أنّ كثيرًا ممن كتبت لهم سابقًا لم يكونوا أكثر من أكاذيب تمشي على قدمين؛ سياسيون ورجال أعمال ومسؤولون سابقون أعادوا ترتيب ماضيهم ليبدو أجمل مما كان، أما هو، فلا يريد أن يجمّل شيئًا، وهو على ثقة أنّ سيرته أكثر إثارة وأهمية وثراءً من معظم السير المنشورة.

ثم نظر إليّ مبتسمًا، وقال:

لا تتسرع. هذه الفرصة ينتظرها العشرات، وأنت تعرف ذلك أكثر مني، ولن نختلف على الأجر، ولن تكون إلا راضيًا وزيادة، ثم ما يهمك واسمك لن يظهر على الكتاب؟ خذ لك جولة في البيت والحديقة، وإذا بقي رأيك كما هو، فسأحترمه وأتفهمه، وسأشكرك على حضورك.

كان يعرف تمامًا أين يضغط، فأنا الذي كتبت كتبًا كاملة لم يذكرني أحد فيها، وكنت أبيع الكلمات كما يبيع غيري ساعات عمله، وكأنّه يعرف ظروفي وحاجتي الماسة لأية فرصة عمل.

خرجت من عنده وأنا أظن أنّ الأمر قد انتهى، لكنني، من دون أن أدري، ذهبت إلى المكتبة. كان أول كتاب التقطته رواية قديمة، وحين فتحتها سقطت من بين صفحاتها صورة لفتاة صغيرة تجلس على أرجوحة. قلّبت الصورة فلم أجد اسمًا ولا تاريخًا. في كتاب آخر وجدت رسالة قصيرة مكتوبة بخط مرتجف: «سامحيني لأنني تأخرت كثيرًا». وفي مجموعة شعرية عثرت على وردة جافة تحولت إلى هيكل هشّ بلون التراب. أعدت الأشياء إلى أماكنها، ثم واصلت التجوال بين أرفف المكتبة.

كان ثمة شعور غريب يرافقني، شعور بأنّ الكتب ليست أهم ما في هذه المكتبة، كانت الرفوف مليئة بأناس غائبين أكثر مما هي مليئة بالكتب.

عندما جاء أبو جميل حاملًا فنجاني قهوة، وجدني ما أزال أقلب الصفحات. ابتسم وقال:

بدأت تتعرف إلى السكان.

لم أفهم قصده، فأشار إلى الرفوف من حوله، وقال:

أصحاب هذه الأشياء.

جلس إلى جواري، ثم تناول كتابًا قديمًا من أحد الرفوف، كان كتابًا في التاريخ فقد

نصف غلافه، فتح الصفحة الأولى، وأراني اسمًا كُتب بحبر أزرق باهت، ثم قال:

هذا الأستاذ كان مدرسًا مُولعًا بالكتب، ولما مات قبل سنوات، باع أبناؤه مكتبته كلها بالكيلو، وبثمن بخس، فاشتريت كثيرًا منها.

أعاد الكتاب إلى مكانه، ثم سحب مجموعة شعرية:

وهذه سيدة كانت تضع وردة بين هذه الصفحات الشعرية، لا أعرف اسمها، ووجدت الكتاب بجوار حاوية نفايات.

ثم أشار إلى إحدى الروايات:

أما هذه، فوجدت داخلها رسالة حب لم تُرسل أبدًا.

كان يتحدث عن تلك الأشياء كما يتحدث شخص عن أصدقاء قدامى، ولم أكن أدري لماذا أشعر بالحزن؛ ربما لأنّني أدركت فجأة أنّ معظم ما نتركه وراءنا ينتهي إلى النسيان؛ الكتب، والصور، والرسائل، وخطوط أقلامنا، وحتى الذكريات التي نظنها عظيمة.

بعد دقائق من الصمت، نهض أبو جميل واتجه نحو خزانة زجاجية صغيرة في زاوية المكتبة، أخرج منها إطارًا متواضعًا ووضعه أمامي. في الصورة رجل خمسيني يجلس على مقعد قرب مسجد، يحمل صحيفة مطوية تحت ذراعه، بدا عاديًا إلى حد التلاشي. سألته:

مَنْ هذا؟

أجاب ببساطة وهدوء:

لا أعرف.

ظننت أنّه يمزح، لكنه تابع بهدوء:

كان يمرُّ أمامي كل صباح في السابعة إلا ربعًا. خمسة عشر عامًا كاملة.

صمت قليلًا، ثم أضاف:

في أحد الأيام لم يأت.

انتظرت أن يكمل، لكنه لم يفعل، بقي ينظر إلى الصورة كما لو أنّه يحاول استعادة ذكرى بعيدة، ثم قال:

بحثت عنه بعيني شهورًا.

ولأول مرة منذ دخلت البيت اختفت الابتسامة من وجهه. في تلك اللحظة فقط بدأت أفهم؛ أبو جميل لم يكن يجلس على الرصيف منتظرًا الصدقات كما كنت أتصور، كان يقضي عمره يراقب النهر البشري الذي يمرُّ أمامه كل يوم، يرى الأطفال يكبرون، والرجال يشيخون، والوجوه تتكرر حتى تصبح جزءًا من حياته، ثم تختفي فجأة دون وداع.

كان أبو جميل المتسوّل يرى الناس أكثر مما يرونه، كان يعرف البشر من تفاصيل لا ينتبهون إليها هم أنفسهم، أما النقود، فقد بدت لي فجأة أقل ما جمعه طوال تلك السنوات، وهو الذي عاش سنوات طويلة على هامش المجتمع، لم يكن هامشيًا كما تخيلت، لقد شاهد من حياة الناس ما لم يشاهده كثيرون؛ رأى وجوههم وهي مطمئنة وخائفة، كريمة وبخيلة، صادقة ومخادعة. جلس في موقع لا يحسده عليه أحد، لكنه أتاح له أن يراقب العالم من أسفل، حيث تسقط الأقنعة أسرع مما تسقط في الأماكن المرتفعة.

غادرني أبو جميل إلى مكتبه وسط المكتبة، وتركني أكمل جولتي بين الكتب، وعندما رأيت أنني أطلت، قصدت مكتبه، كان أبو جميل جالسًا أمام حاسوبه المحمول، يكتب شيئًا ويبتسم. نظرت إلى الرجل، ثم إلى المكتبة الممتدة حوله، وفجأة خطر لي أنّ هذه المكتبة ليست سوى نسخة أخرى منه. كل كتاب هنا جاء بعد أن تخلّى عنه أحد. كل صورة نجت من النسيان بصعوبة. كل رسالة أفلتت من المصير نفسه. وأبو جميل أيضًا كان واحدًا من تلك الأشياء التي مرّ الناس بقربها آلاف المرّات دون أن يتوقفوا عندها.

وقفت أتأمله بصمت، لم أعد أرى أمامي متسوّلًا متقاعدًا، ولا رجلًا جمع ثروة من مهنة تثير الجدل، رأيت إنسانًا أمضى عمره كله يجمع ما يهمله الآخرون؛ نقودًا قليلة أحيانًا، وكتبًا مرمية أحيانًا أخرى، وحكايات لا حصر لها في معظم الأحيان، وفجأة خطرت لي فكرة لم أستطع طردها؛ ربما لم يكن الفرق بيني وبينه كبيرًا كما ظننت، فهو جمع الحكايات من الأرصفة، وأنا أجمعها من الناس، هو عاش على ما يمنحه الآخرون، وأنا أيضًا أعيش، بطريقة مختلفة، على حكايات الآخرين وأسمائهم.

جلست في المقعد المقابل له، وأخرجت دفتري من الحقيبة، رفع رأسه نحوي مبتسمًا، لم يسألني إن كنت وافقت، ولم أخبره بذلك، لكنني فتحت الصفحة الأولى، بينما كانت عيناي ما تزالان معلّقتين بالرفوف الممتدة خلفه.

في تلك اللحظة، لم أكن أفكر في كتابة سيرة متسوّل، كنت أفكر في كتابة سيرة رجل قضى عمره يحرس ذاكرة الآخرين، بينما لم ينتبه أحد إلى أنّه كان يحتاج هو أيضًا إلى مَنْ يتذكره.

النـاسُ للنـاسِ

قبل أن تستيقظ المدينة، كانوا يلتقون عند عربة شاي صغيرة تقف في نهاية الشارع. لا يتأخر أحدهم عن الموعد إلا لعذر. يشربون أكوابهم ببطء، ويتبادلون أخبار الأمس، ويقتسمون رغيفًا ساخنًا إذا ضاق الحال بأحدهم، ثم يتفرقون في صمت، كلٌّ إلى جهته، كأنّ بينهم خريطة لا يراها سواهم.

كانوا يعرفون الغياب قبل الحضور، وإذا تأخر واحد منهم، سألوا عنه، وإذا مرض أحدهم، ظلّ مكانه خاليًا حتى يعود.

في ذلك الصباح، لاحظ أحدهم أنّ صاحبه يبدو شاحبًا، ناولَه نصف رغيفه وقال مبتسمًا:

كلْ... لن يهرب النهار.

ابتسم الرجل، وأخذ لقمة صغيرة، وقال وهو ينهض:

سأعود عند الظهيرة، ونشرب الشاي معًا.

هزّ الآخر رأسه، وافترقا.

لم يعد عند الظهيرة. سقط في منتصف الشارع قبل أن يبلغ الجهة الأخرى. ركض إليه صاحبه، وجثا إلى جواره، بينما ساعده بعض المارة في حمله إلى أقرب مستشفى حكومي

داخل قسم الطوارئ، ابتلع الباب الأبيض السرير، وبقي الرجل أمام موظف استقبال المرضى. كانت الأسئلة تمضي بسهولة في البداية.

الاسم، ثم اسم الأب، ثم توقفت الإجابات؛ لم يكن يعرف اسم عائلته، ولا تاريخ ميلاده، ولا رقمه الوطني، ولا عنوان بيته، ولا رقم هاتف قريب له. كان يعرف فقط أنّ الرجل يجلس في مكان على مرأى منه كل صباح، ويشاركه الشاي أحيانًا، ويضحك بالطريقة نفسها كلما سمعا طرفة أو رأيا مشهدًا مضحكًا، أو تعرضا لموقف محرج.

رفع الموظف رأسه:

ما عمله؟

تردد الرجل، ثم قال:

على باب الله.

انتظر الموظف تتمة الجملة، ولما لم تأتِ، سأل:

يعني ماذا؟

خفض الرجل بصره:

لله... يا محسنين.

تبدلت ملامح الموظف دون أن يشعر.

كتب كلمة واحدة في الملف «شحاذ» ثم قال:

نحتاج إلى كفيل، أو ألف دينار تحت الحساب.

قال الرجل بسرعة ودون تردد:

أنا أكفله.

رفع الموظف عينيه من جديد:

وما عملك أنت؟

ابتلع الرجل ريقه، ثم أجاب بالجملة نفسها:

على باب الله.

ابتسم الموظف ابتسامة قصيرة، لم تكن ساخرة تمامًا، لكنها لم تكن رحيمة أيضًا:

هذا لا يكفي.

حاول استعطافه، موضحًا أنّ المريض رجل فقير، والناس للناس، وسيتكفل بالمبلغ أيًا يكن، لكنه أصرّ، فهو موظف ينفذ التعليمات فحسب.

بقي الرجل واقفًا لحظات، نظر إلى الباب المغلق، ثم قال:

سأتدبر الأمر. أمهلني بعض الوقت.

وغادر.

في الخارج، حاول أن يستوقف المراجعين وزوار المستشفى، كان يشرح بسرعة، ويشير إلى باب الطوارئ. استمع إليه بعضهم باهتمام، ثم مضوا، واعتذر آخرون، ولم يتوقف كثيرون أصلًا، ولما لم يجد مَنْ يُعينه، اختفى من المستشفى.

بعد ساعتين، دخل الرجل من باب المستشفى، وخلفه عدّة رجال. عندها انتبه الموظف إلى وجوههم، كان قد رآهم عشرات المرات من قبل، دون أن يعرف أنّه رآهم؛ هذا عند إشارة المرور، وذاك أمام المسجد الكبير، وثالث عند مدخل السوق، ورابع قرب المخبز، وخامس عند أحد المولات الكبيرة. الوجوه نفسها التي اعتاد أن تمرّ عليها عيناه كل يوم دون أن تستقر في ذاكرته.

اقتربوا واحدًا بعد آخر، أخرج الأول من جيبه أوراقًا نقدية مطوية، ووضعها على الطاولة. ثم جاء الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، ثم...، وبدأت النقود الصغيرة تتراكم، حتى امتلأت الطاولة.

عدّها الموظف، ثم أعاد عدّها، ألف دينار.

ظل صامتًا، نظر إلى الواقفين، كانوا يتحدثون في أشياء عادية، كأنّهم ينتظرون حافلة، يتبادلون حديثًا عاديًا عن حرارة الطقس، وعن شرطي السير الذي غاب اليوم، وعن بائع الشاي الذي رفع سعر الكأس إلى ربع دينار، فلم يكن أحد يحتفل بما فعل، ولم يكن أحد ينتظر شكرًا.

قال الموظف بصوت خافت:

كيف جمعتم...؟

نظر الرجل إلى أصحابه، ثم عاد إليه:

عندما يمرض واحد منا، لا يتركه الباقون وحده، فالناس للناس يا ابن الناس.

لم يجد الموظف ما يقوله، شعر أنّ الجملة لم تُوجَّه إلى أذنيه وحدهما، بل إلى شيء أعمق ظلّ ساكنًا داخله سنوات.

ناوله نسخة إيصال الدفع صامتًا، فالتقطه واتجه نحو قسم الطوارئ.

في صباح اليوم التالي، أخبرهم الطبيب أنّ صاحبهم سيغادر المستشفى بعد ساعات، وأنّه يحتاج إلى راحة وطعام جيد ليس إلا، وأنّ عليهم مراجعة قسم المحاسبة لاسترداد بقية المبلغ الذي دفعوه.

دخلوا عليه واحدًا بعد آخر، أحضر أحدهم كيسًا فيه فاكهة، ووضع آخر رغيفًا ساخنًا قرب وسادته، وجلس ثالث إلى جواره بصمت، ووقف الباقون، كانوا يمازحونه ويخففون عنه، وعندما انتهت الزيارة، بقي واحد منهم، وغادر الباقون.

كانوا قد اتفقوا على ذلك منذ الليلة الماضية.

خرج الرجل المريض مع رفاقه من المستشفى مع حلول المساء، وقبل أن يبلغ الباب الخارجي، سمع خطوات خلفه.

التفت. كان الموظف، وقف أمامه لحظة، ثم مدّ يده، صافحه، ولم يقل شيئًا.

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة، ومضى.

وقف الموظف خلف الزجاج يتابعهم، كانوا يسيرون نحو الأرصفة نفسها التي جاءوا منها. غير أنّ الأرصفة، من خلف الزجاج، لم تعد تبدو كما كانت في الأمس، ولم يعد أصحابها كذلك.

وعلى الطاولة، إلى جوار الملف، لمع إيصال دفع الألف دينار؛ الضمانة.

أربعونَ ثـانيــةً

لا أعرف لماذا يظن الناس أنّ أطفال الإشارات الضوئية مجرد ظلال عابرة تظهر حين يحمرُّ الضوء وتختفي حين يخضرُّ. كنت واحدة من تلك الظلال، فتاة صغيرة لم تبلغ الثالثة عشرة، تحفظ أسماء التقاطعات المزدحمة أكثر مما تحفظ أسماء الشوارع، وتعرف مواعيد ازدحام السيارات كما يعرف الموظفون مواعيد دوامهم.

كانت الإشارة بالنسبة إليّ عالمًا كاملًا؛ أربعون ثانية هنا، وخمسون هناك، ودقيقة كاملة في بعض الأيام السعيدة. خلال هذا الوقت القصير، كنت أعيش عشرات الحيوات؛ أكون يتيمة فقدت أهلها في حادث، ثم أتحوّل إلى ابنة أم مريضة تحتاج إلى عملية جراحية عاجلة، وبعد دقائق أصير أختًا لأطفال جائعين ينتظرون رغيفًا في بيت بارد. كنت أبدّل الحكايات كما أبدّل الأرصفة، وأبدّل الدعوات التي أغدقها على الناس أيضًا.

إذا وجدت شابة خلف المقود دعوت لها أن تتزوج مَنْ تُحب، وإذا رأيت شابًا يحدّق في هاتفه دعوت أن يجمعه الله بمن ينتظر رسالتها، أما العائلات، فكان لها نصيب خاص من الدعاء؛ أطفالهم وأحفادهم، أفراحهم وأعيادهم، وكل ما يمكن أن يُلين قلبًا خلال ثوانٍ معدودة، فقد كنت أعرف أنّ الدعاء لا يكلف شيئًا، لكنه أحيانًا يفتح باب القلب.

ومع مرور الوقت أصبحت خبيرة، أعرف السيارات التي تستحق أن أركض إليها أولًا؛ السيارات القديمة المتعبة كانت غالبًا أكثر رحمة وكرمًا، أما السيارات الفارهة اللامعة فكانت تشبه قصورًا متحركة؛ جميلة من الخارج، مغلقة بإحكام من الداخل، وكثيرًا ما كنت أرى زجاج النوافذ يرتفع قبل أن أبلغها بخطوات قليلة، كأنّني مرض معدٍ يجب عزله، وبعضهم كان يضحك، وبعضهم يشتم، وبعضهم يتصرف بطريقة تجعلني أتمنى لو أنّ الأرض تبتلعني قبل أن تبتلع نقوده.

كنت أحفظ زمن الإشارات بدقة غريبة، أحيانًا لا أنظر إلى الضوء أصلًا، شيء داخلي كان يعدّ الثواني وحده، أتحرّك بين السيارات بسرعة، وفي الثانية الأخيرة أنتقل إلى اتجاه آخر يوشك أن يحمرَّ. كان جسدي الصغير قد تعلّم أن يعيش على إيقاع الضوء الأحمر والأخضر.

لكن السنوات لا تتوقف عند أحد. حين بلغت الخامسة عشرة بدأت ألاحظ أنّ العالم من

حولي يتغيّر، لم تعد النظرات هي النظرات نفسها، صارت بعض العيون تلاحقني بطريقة مختلفة، سمعت كلمات لم أفهمها أول الأمر، ثم فهمتها، وعروضًا كنت أتمنى ألا أفهم معناها أبدًا. فجأة لم تعد الإشارة مكانًا آمنًا أطلب فيه المال، أصبحت مكانًا أخاف فيه على نفسي، فبدأت أغيّر طريقة وقوفي، وأتفادى بعض السيارات، وأختار أماكن أقلّ ازدحامًا

وفي إحدى الأمسيات، بينما كنت أتنقل بين صفين طويلين من السيارات، سمعت شابًا يناديني بكلمات جعلت الدم يتجمد في عروقي، لم أعبر إليه، ولم أنظر نحوه، عدت إلى الرّصيف وانتظرت، على غير عادتي، أن تصبح الإشارة خضراء بسرعة.

يومها فقط انتبهت إلى شيء لم أفكر فيه من قبل، فطوال سنوات كنت أخشى الجوع أكثر من أي شيء آخر، حتى نسيت أنّ هناك أشياء قد تكون أشد قسوة من الجوع.

في تلك الليلة لم أنم. ظللت أتذكر وجوه الناس التي مرّت أمامي خلال السنوات الماضية، آلاف الوجوه، وجوه نسيتها فورًا، ووجوه بقيت عالقة في الذاكرة دون سبب واضح، وتساءلت: هل سأقضي عمري كله بين هذه السيارات؟ هل سأبقى أركض خلف الضوء الأحمر حتى أكبر ثم أختفي كما اختفى غيري؟

بعد أشهر من البحث والتعب غادرت المدينة، بعد أن وجدت عملًا في مصنع للملابس بمساعدة امرأة كانت تمرُّ بي على الإشارة، ومع أنّ الراتب كان ضئيلًا، والعمل لساعات طويلة يُرهق جسدي، لكنني كنت أعود إلى غرفتي كل مساء متعبة فقط، لا خائفة. كان ذلك فرقًا كبيرًا.

مرّت الأعوام بطيئة هادئة، تعرّفت خلالها إلى عاملات يشبهنني في شيء ما؛ لكل واحدة حكاية تحاول أن تتركها خلفها. ثم جاء زوجي إلى حياتي كما تأتي الأشياء الطيبة دون ضجيج، رجل بسيط يعمل بجد في المصنع نفسه ويضحك من قلبه.

بعد الزواج بفترة طويلة أخبرته عن كل شيء؛ عن الإشارات، وعن السيارات، وعن القصص التي كنت أخترعها، وعن الدعوات التي كنت أوزعها على الغرباء، وعن الأيام التي كنت أعدّ فيها النقود آخر الليل وأنا أحاول إقناع نفسي أنّ الغد سيكون أفضل.

استمع بصمت. كنت أظن أنّ شيئًا سيتغيّر في نظرته إليّ بعد أن أنتهي، لكن شيئًا لم يتغيّر. سألني فقط:

وهل ما زلت تحفظين زمن الإشارات؟

ضحكت كما لم أضحك من قبل، وفي مساء اليوم التالي، في أثناء عودتنا من المصنع، بينما كنا نسير في أحد الشوارع، توقفت سيارة المصنع عند ضوء أحمر. اقتربت طفلة صغيرة من النافذة، كانت في العمر نفسه تقريبًا الذي كنت فيه يوم بدأت. لم تطرق الزجاج، ولم تقل شيئًا. اكتفت بالنظر إلى الداخل. أما أنا، فبقيت أنظر إليها حتى تحوّل الضوء إلى اللون الأخضر، وانطلقت السيارات كلها، وبقي وجهها معلقًا في ذاكرتي، كما لو أنّ جزءًا صغيرًا مني ما زال واقفًا هناك، عند الإشارة نفسها، ينتظر أن يعبر.

تصريحُ عمل

قبل أن يغلق الباب خلفه، عرفت زوجته أنّ شيئًا انكسر في داخله. لم يكن الغضب غريبًا عليه، فقد عاد إلى البيت مرارًا متعبًا أو متذمرًا أو ساخطًا على يوم شحيح، لكنه لم يعد يومًا بهذا الوجه الذي يشبه بابًا أُوصد على عمر كامل. ألقى عصاه في زاوية الغرفة، وجلس صامتًا، ثم قال بلهجة حاسمة لم تعهدها منه:

انتهى الأمر... لن أخرج غدًا.

لم تسأله مباشرة، كانت تعرف أنّ الرجال حين يتقدم بهم العمر لا يجرحهم التعب بقدر ما يجرحهم الانكسار. تركته يغسل يديه، ويتناول عشاءه على مهل، ثم جلست قبالته. كانت هي الأخرى ابنة هذه المهنة قبل أن تهزمها السنوات وآلام الركبتين، فتتقاعد إلى شؤون البيت وذكريات الطرقات القديمة. تأمّلت وجهه الذي حفرت الشمس والبرد عليه خرائط نصف قرن، وقالت بهدوء:

ماذا حدث؟

تنهد طويلًا، كأنّما كان يخرج من صدره دخان خمسين سنة دفعة واحدة، أما هي، فكانت تعرف قبل أن يتكلم أنّ الأمر ليس متعلقًا بقلّة الرزق، فالرزق كان دائمًا يأتي بطريقة أو بأخرى، المشكلة في شيء آخر، شيء أخذ يتسلل إلى المهنة منذ سنوات، يعيد تشكيل خرائطها، ويغيّر ملامحها كما يغيّر الإسمنت ملامح الحقول.

تذكرت أيامها القديمة عندما كانت الطرقات واسعة للجميع، والمتسولون يعرفون بعضهم بعضًا بالاسم والوجه والحكاية، لكل واحد طريقته في استدرار العطف، ولكل واحد مكانه الذي يصل إليه بالتراضي لا بالإكراه، وكل حسب جهده وقدراته وفنونه، لا حسد ولا حقد ولا جشع ولا مؤامرات، ولا وجود لفتوات أو متحكمين. لم تكن هناك لوائح ولا رسوم ولا تهديدات، كان الناس يتنافسون على لقمة العيش، لا على رقاب بعضهم. الأمور تسير على البركة، والرزق من عند الله، كل راض بما قسم الله له، وإذا جاء رزق وفير لأحدهم، قال الآخرون: «الله يزيده»، ومضوا إلى حال سبيلهم.

لكن الدنيا تبدلت. ظهر رجال لم يحملوا في أيديهم أكواب التسوّل، بل حملوا دفاتر الحساب، نصَّبوا أنفسهم أوصياء على المتسولين، ثم صاروا حكامًا لهم. تحدثوا عن

التنظيم والعدالة وتقسيم المناطق، وكانت الكلمات جميلة كالأغلفة اللامعة للكتب الرديئة، أما الحقيقة فكانت أبسط وأقسى؛ مشاركة أرزاق الآخرين جبرًا دون أن يمدوا أيديهم يومًا واحدًا إلى المارة.

قال العجوز وهو يهز رأسه بأسى:

منذ أشهر وأنا أحاول التفاهم مع ذلك الشاب الذي نصب نفسه زعيمًا للمتسولين، إنّه أصغر مني بأكثر من نصف عمري، ويعاملني كأنّني تلميذ جديد في المهنة، يريد مني رسومًا يومية أو اشتراكًا شهريًا مقابل تصريح عمل! تصوّري... تصريح عمل لمتسوّل!

ضحك ضحكة قصيرة جافة، ثم تابع:

ولم يكتفِ بذلك، فقد خصص لي منطقة لا يجوز أن أتجاوزتها وإلا أصبحت مُخالفًا، وإذا كررت المخالفة أُغرَّم، وإذا اعترضت أُطرد، كأنّنا شركة كبيرة أو دائرة حكومية.

سكت قليلًا، ثم أضاف بصوت أخفض:

جاءني اليوم بنفسه، لم يطلب هذه المرّة، بل هدد. قال إنّه سيجعل حياتي جحيمًا إن لم ألتزم، وأنا أعرفه جيدًا، أعرف كم يده طويلة، وقلبه أسود. عندها شعرت أنّني لم أعد أغادر البيت لأتسوّل، ولكن لأستأذن متسوّلًا آخر كي يسمح لي بالتسوّل. أليست هذه مهزلة؟!

ساد الصمت بينهما، كان صمتًا يعرف الطريق إلى القلوب التي عاشت طويلًا معًا. مدّت يدها وربتت على كتفه كما كانت تفعل منذ عشرات السنين، وقالت:

خيرًا فعلت. الحمد لله أننا لم نعد بحاجة إلى شيء. لدينا ما يكفينا. دعهم يتشاجرون على الطرقات والمناطق والرسوم، أما أنت فقد أديت ما عليك، وآن لك أن تستريح.

ثم ابتسمت ابتسامتها القديمة التي أحبها منذ شبابهما، وهزّت رأسها بأسى وأضافت:

إنّ البغاث بأرضنا تستنسر.

رفع رأسه إليها. لمعت في عينيه تلك الشرارة التي لم تستطع السنون إطفاءها. ابتسم بدوره، وغمزها في خبث لطيف يعرفه جيدًا. كانت زوجته مثقفة مولعة بالكتب والأمثال والحكم، تقرأ، وتكتب ما يروق لها في دفتر خاص، أصبح مع مرور الأيام والسنون دفاتر فوق دفاتر.

قال وهو ينهض ببطء متكئًا على عصاه:

سبحان الله، نصف قرن وأنا أتعلم أسرار التسوّل، وفي آخر العمر اكتشفت أنّ المتسولين صاروا يحتاجون إلى متسولين يديرون شؤونهم!

ضحكت، وضحك معها. وخارج النافذة كانت المدينة تواصل ضجيجها المعتاد، بينما جلس العجوزان في هدوء نادر، يتأملان عمرًا طويلًا مضى، وقد نجا أخيرًا من آخر ما كان ينتظره على الطريق.

الطّفلةُ التي لم تَكبُر

كانت أم سعد امرأة محبوبة يعرفها الجميع في الحي. ما إن تطرق بابًا حتى يُفتح لها بابتسامة، وما إن تجلس بين اثنين مختلفين حتى تهدأ النفوس وتلين الكلمات. كانت حاضرة في الأفراح والأتراح، وفي المرض والشفاء، وفي كل مناسبة يحتاج فيها الناس إلى قلب طيب أو كلمة موزونة.

عاشت مع زوجها أبي سعد، الحداد المعروف في الحي، ومع أبنائها الثلاثة الذين كبروا أمام أعين الجيران حتى صاروا شبابًا وشابات في مقتبل العمر.

وكان في حياة أم سعد أمر اعتاده الجميع حتى لم يعودوا يلتفتون إليه، كانت كثيرة الخروج، تغادر البيت ساعات طويلة، ثم تعود محمَّلة بالأخبار والحكايات، وإذا سألها أحد أين كانت، قالت إنّها زارت مريضة، أو عزّت أهل ميت، أو هنأت عروسًا جديدة، أو جلست مع امرأة وحيدة تحتاج إلى من يواسيها، وكانت تقول ذلك بثقة تجعل الشك يبدو نوعًا من سوء الأدب.

في مساء أحد الأيام خرجت أم سعد كعادتها، لكن الليل مضى ولم تعد. انتظرها أبو سعد حتى ساعة متأخرة، وبدأ القلق يتسلل إلى قلبه. اتصل الأبناء بقريباتها وصديقاتها، وسألوا عنها في كل مكان يمكن أن تكون فيه، لكن أحدًا لم يرها.

حاولوا أن يقنعوا أنفسهم بأنّها تأخرت لسبب طارئ، وأنّها ستعود مع الصباح، لكن الصباح جاء وحده، فذهب أبو سعد إلى مركز الشرطة، ثم أخذ يدور على المستشفيات. وهناك وجد الخبر الذي لم يكن يتوقعه؛ امرأة مجهولة الهوية أُدخلت مساء الأمس بعد إصابة شديدة في الرأس، وما تزال في غيبوبة.

وصل مع أبنائه إلى المستشفى، وما إن رأوها حتى تجمدت الكلمات في حناجرهم، كانت أم سعد.

بدأت خيوط الحادثة تتكشف ببطء؛ امرأة خرجت من أحد البيوت في حي راقٍ بعيد، تعثرت على الدرج المبلل، وسقطت بقوة على الأرض، ونُقلت إلى المستشفى دون اسم أو هاتف أو أي وثيقة تثبت هويتها.

لكن المفاجأة الحقيقية لم تكن في السقوط، كانت في سبب وجودها هناك أصلًا، فقد تبين أنّها كانت تطرق أبواب البيوت في الأحياء الراقية منذ سنوات، وتطلب الصدقات بأعذار مختلفة، تحكي عن مريض يحتاج إلى علاج، أو أرملة تنتظر إيجار المنزل، أو طفل يحتاج إلى عملية جراحية، وكانت تجمع المال ثم تمضي إلى باب آخر وقصة أخرى

جلس أبو سعد كأنّ الأرض انسحبت من تحت قدميه. أما الأبناء فبدت الصدمة على وجوههم كصفعة لا يعرفون كيف يردون عليها، وأحسّوا أنّ شيئًا ما ينكسر داخلهم. كيف يمكن أن تكون أمهم هي المرأة نفسها التي يتحدث عنها الناس؟ وأين كانت تذهب كل تلك السنوات؟ ولماذا؟

كان السؤال الأخير هو الأصعب، فلم يكن المال سببًا مقنعًا، فأوضاعهم المالية جيدة، وتفيض عن حاجتهم، ولا ديون عليهم.

مرت أيام قبل أن تستعيد أم سعد وعيها. كان زوجها يجلس صامتًا، وفهمت من نظراته الحزينة أنّ السر الذي أخفته سنوات طويلة لم يعد سرًا.

لم يغضب، لم يصرخ، ظلّ ينظر إليها طويلًا، كأنّه يبحث بين ملامحها عن المرأة التي عاش معها كل تلك السنوات، أما هي، فأطرقت برأسها خجلًا نحو الملاءة البيضاء؛ فلن تجد عذرًا تقنع به أحدًا.

اقترب منها أبو سعد، جلس إلى جوار سريرها، كان حزينًا. قال بصوت خافت:

لماذا يا أم سعد؟

ظلّ السؤال معلقًا بينهما طويلًا، أغمضت عينيها، وكأنّها تبحث في أعماق سنوات بعيدة، ثم قالت:

لا أعرف إن كنت سأستطيع أن أشرح.

سكتت قليلًا ثم أكملت:

ليس عذرًا، ولا أبرر ما جنيت بحقكم وحق نفسي وخاصة في هذا العمر.

نظرت إلى زوجها كأنّها تستسمحه، ثم أضافت:

عندما كنت صغيرة، كنا فقراء جدًا. ليس الفقر الذي تعرفه أنت، كان فقرًا يجعل

الإنسان يخجل من وجوده. أتذكر أيامًا كنت أنام فيها وأنا أفكر في قطعة خبز، أتذكر أمي وهي تعود باكية لأنّها لم تجد من يقرضها ثمن الدواء، وأتذكر نظرات الناس، تلك النظرات التي لا تُنسى.

كنت أحلمُ بثوب جديد، بوجبة مشبعة، بقطعة دجاج أو لحم، بلعبة كما الأطفال، بدينار واحد أشتري به ما أشاء، بشمعة تضيء في يوم ميلادي، لكنها بقيت أحلامًا بعيدة المنال

كان أبو سعد يستمع بصمت، وتابعت:

كبرت وتزوجت، وتحسنت حياتنا، لكن شيئًا بداخلي لم يكبر، بقيت تلك الطفلة خائفة من الجوع، خائفة من الغد، خائفة من أن تستيقظ فتجد كل شيء قد اختفى.

ارتجف صوتها قليلًا:

في البداية خرجت مرّة واحدة فقط، قلت لنفسي إنني أجمع مبلغًا للطوارئ، ثم خرجت ثانية، ثم ثالثة. بعد سنوات لم أعد أخرج من أجل المال وحده، كنت أشعر براحة غريبة عندما أعود ومعي شيء، كأنني أطمئن تلك الطفلة القديمة بأننا لن نجوع بعد اليوم.

لم يجب أبو سعد، وكانت أم سعد تنظر إلى السقف الأبيض:

كنت أعرف أنّ ما أفعله خطأ، في كل مرّة أقول لنفسي إنّها الأخيرة، ثم أعود. حاولت التوقف كثيرًا، لكنني كنت أخاف من الفقر حتى وأنا أعيش بعيدة عنه، كنت أهرب من شبح لم يعد موجودًا.

ساد الصمت طويلًا، وفي الممر البارد للمستشفى، كان الأبناء ينتظرون، كان الصمت وحده يعرف حجم الهوة التي فتحتها الحقيقة بين الأم التي عرفوها، والأم التي اكتشفوها فجأة.

أما داخل الغرفة، فكانت امرأة تقترب من الستين من عمرها تجلس أخيرًا أمام جرح ظلّ مختبئًا في أعماقها عشرات السنين، لم تكن أم سعد تروي حكاية اخترعتها للآخرين كما تعودت، وإنّما كانت تروي الحكاية الحقيقية الوحيدة التي عاشت داخلها كل تلك الأعوام.

مدّت أم سعد يدها إلى يد زوجها، لكنها تراجعت قبل أن تلامسها، بعدما رأت في عينيه جرحًا لم تعرف كيف تعتذر عنه.

7

في صباح كل يومٍ، كان آدم يقف أمام المرآة الصغيرة المعلقة على جدار الغرفة المتآكل. لم يكن ينظر طويلًا إلى وجهه، بل إلى البطاقة الكرتونية المثبتة على قميصه بخيط أبيض، وقد كُتب عليها الرقم (7). لم يكن أحد في مركز الرعاية يناديه باسمه إلا الأطفال، أما الكبار فكانوا يقولون: «سبعة.. هيا لا تتأخر»، «سبعة.. لا تتكاسل اليوم»، «سبعة.. إياك أن تتصرف بقرش مما تحصل عليه».

لم يعد يتذكر متى صار اسمه رقمًا، ربما منذ ماتت أمه، أو منذ دخل ذلك المبنى الذي علّقوا على واجهته لوحة كبيرة كتب عليها: «بيت الرحمة». كان الاسم جميلًا بما يكفي ليصدقه الناس، أما الأطفال فكانوا يعرفون أنّ الرحمة هناك تُقاس بما يعودون به في نهاية النهار من نقود.

كانوا يوزعونهم بعد إفطار شحيح كما تُوزّع البضائع؛ هذا إلى الإشارة الضوئية، وذاك إلى السوق الشعبي، وآخر إلى مدخل أحد المولات، وهكذا يمضي بقية الأطفال، كلٌّ إلى مكانه المرسوم. وكان لكل مجموعة من الأطفال رجل يراقبهم من بعيد، يتظاهر بقراءة صحيفة، أو باحتساء الشاي، أو بالحديث في هاتفه، وإذا عاد أحدهم بمبلغ قليل، انتظره الليل طويلًا، والجوع أطول.

كان مكان آدم الدائم عند مدخل أحد المولات، كان يكره ذلك المكان؛ فالناس يمشون فيه بسرعة، يحملون أكياسًا ملونة، ويشيح كثير منهم بوجوههم قبل أن يلتقي نظرهم بعينيه، وكأنّ الفقر مرض ينتقل بالنظر، وأحيانًا يضع أحدهم قطعة نقدية في يده دون أن ينظر إليه، كمن يتخلص من حمل صغير، وكثيرًا ما شعر بالألم والحرمان عندما يرى الأطفال يدخلون المول مع آبائهم، ثم يخرجون ضاحكين يحملون ألعابًا وهدايا وقطع شوكولاتة. لم يكن يحسدهم على ما في أيديهم بقدر ما كان يتحسّر على ما في أيديهم الأخرى؛ اليد التي يمسك بها أبٌ ابنه، أو تحتضن بها أمٌّ طفلها، وهو الذي لم يعرف يومًا معنى أن يكون له أب أو أم.

في المساء، كان الأطفال يُفرغون جيوبهم فوق الطاولة، بينما تمتد يد المشرف تجمع القطع النقدية، قطعة بعد أخرى، دون أن يسأل أحدهم إن كان يحتاج قميصًا أو بنطالًا أو حذاءً.

لم يكن آدم يحب التسوّل وسؤال الناس، لكنه كان يخاف أكثر من تلك العبارة التي يهمس بها المشرف في أذنه كل صباح: «إذا رجعت خالي اليدين أو بنقود قليلة، فلا تطلب عشاء».

وحين كان يمدُّ يده للناس، لم يكن يشعر أنّه يطلب مالًا، كان يحاول أن يُخفي ارتجاف أصابعه، ويخفض رأسه، كان أكثر ما يؤلمه أنّ بعض المارّة كانوا يبتسمون له وهم يلتقطون صورة، ثم يمضون، وكأنّ حزنه وفقره جزء من معالم المدينة.

في ذلك اليوم، جاءت سيارات الجهات المختصة دفعة واحدة، فركض الأطفال مذعورين، يحاولون الهروب، بينما الرجال الذين كانوا يراقبونهم يتراجعون بخطوات هادئة، ثم اختفوا وسط الزحام. وحدهم الأطفال بقوا في المشهد وأُلقي القبض عليهم.

في مركز التنمية الاجتماعية، جلس آدم مع عشرات الصغار، كانت هذه أول مرّة يسألهم أحد: «من أجبركم؟»

ساد الصمت، لم يكن الصمت خوفًا من الكذب، بل خوفًا من الحقيقة؛ فالطفل الذي يتعلّم مبكرًا أنّ الخبز قد يُسحب من فمه، يتعلّم أيضًا أنّ الكلمات قد تكون أخطر من الجوع.

لكن أحدهم بكى، وبعده بكى آخر، ثم بدأت الحكاية تخرج من أفواههم متقطعة، كأنّها كانت محبوسة منذ سنوات، تكلموا عن التهديد، وعن مراقبي الشوارع، وعن النقود التي لم يكن يحق لهم الاحتفاظ منها حتى بثمن قطعة حلوى، وعن العقوبات التي كانت تبدأ بحرمانهم من الطعام، ولا تنتهي عند الإهانة والضرب.

لم يستغرق انتشار الفضيحة طويلًا حتى امتلأت بها الشاشات، أصبح آدم خبرًا عاجلًا، صار وجهه، الذي كان يخجل من أن يراه أحد، معروضًا أمام ملايين الناس، مع شريط أحمر يقول: «فضيحة استغلال الأيتام».

قرأ المذيعون تفاصيل حياته دون أن يعرفوا اسمه، كتب آلاف الأشخاص تعليقات غاضبة، اختلف الناس في المقاهي، وعلى الهواتف، وفي مواقع التواصل؛ بعضهم لعن إدارة المركز، وبعضهم دافع عنها بحجة ضيق الموارد، وبعضهم شكك في رواية الأطفال، وآخرون وجدوا في القضية فرصة لتصفية حسابات لا علاقة لها بالأيتام.

كان الجميع يتحدث، إلا الأطفال الذين نُقلوا إلى مركز آخر، أكثر هدوءًا، وهناك لم يكن أحد يوقظهم قبل الفجر ليحدد لهم الشوارع التي سيقفون فيها، وصار بإمكان آدم أن يقرأ

كتابًا بعد العشاء، وأن يلعب كرة القدم دون أن يخشى أن يصرخ فيه أحد لأنّه أضاع وقتًا كان يمكنه أن يجلب فيه نقودًا، ومع ذلك، ظل يستيقظ أحيانًا مذعورًا، ويتحسس جيوبه الفارغة قبل أن يتذكر أنّه لم يعد مطالبًا بأن يملأها.

جاء يوم المحكمة، ازدحم المبنى بالصحفيين، والمصورين، والفضوليين. كان كل فريق ينتظر الحكم بالطريقة التي توافق موقفه؛ ليس لأنّ العدالة تعنيه بالضرورة، بل لأنّ الحكم سيمنحه انتصارًا في النقاش الذي خاضه منذ أسابيع.

داخل القاعة، كانت الأوراق تتنقل بين الأيدي، والمحامون يترافعون، والقاضي يُصغي، والكلمات تتكاثر حتى بدت أثقل من أعمار الأطفال جميعًا.

أما آدم، فلم يكن يفكر في شيء من ذلك، كان جالسًا قرب النافذة في المركز الجديد، يرسم بيتًا صغيرًا تحيط به شجرة، وحين انتهى من الرسم، لم يرسم عند الباب -كما تعود- طفلًا يمدّ يده لأحد؛ ترك الباب مفتوحًا فقط، ثم نظر إلى بطاقته القديمة (7) الموضوعة فوق الطاولة، ألقاها في سلة المهملات، وكتب تحت الرسم اسمًا واحدًا: «آدم».

دائـرةُ الـظُّنـون

كان يجلس في المكان نفسه منذ سنوات، حتى صار جزءًا من المشهد اليومي للشارع، كعمود إنارة قديم أو شجرة هرمة تعرفها العيون ولا تلتفت إليها إلا إذا اختفت.

على الرصيف، كان يفرش أمامه قطعة قماش باهتة اللون، ويفترش قطعة كرتون على الأرض، ويضع يديه في حجره، ثم لا يلبث أن يبدأ بتحريكهما بشكل شبه دائم، كأنّهما تبحثان عن شيء ضاع منه منذ زمن بعيد. كان كثير الالتفات أيضًا؛ ينظر يمينًا ويسارًا وخلفه وفوقه، حتى يُخيّل لمن يراه أنّه ينتظر أحدًا أو يراقب أحدًا أو يخشى شيئًا لا يراه سواه.

لم يكن يشبه المتسوّلين الذين اعتدناهم، فهو لا يمدّ يده لأحد، ولا يُلاحق المارة بكلمات الاستعطاف، وإذا وضع أحدهم قطعة نقدية أمامه، هزّ رأسه شاكرًا، وربما تمتم بكلمة قصيرة لا تكاد تُسمع، وإذا مرّ الناس من أمامه دون أن يعطوه شيئًا، بقي جالسًا بالصمت نفسه، كأنّه لا ينتظر منهم شيئًا.

لكن الصمت لا يمنع الناس من الكلام، فمع مرور السنوات، نبتت حول الرجل حكايات كثيرة؛ قال أحدهم إنّه مخبر للأجهزة الأمنية، وأكد آخر أنّه رآه يراقب الداخلين إلى السوق والخارجين منه، وزعم ثالث أنّه لا يكتب على الورق، بل يحفظ كل شيء في رأسه ثم ينقله لمن يعمل معهم. وكانت حركاته المتواصلة تمنح تلك الشائعات شيئًا من المصداقية في نظر الناس؛ فكيف لرجل أن يلتفت كل هذه الالتفاتات إن لم يكن يُراقب؟ وكيف تبقى يداه في حركة دائمة إن لم يكن يسجل أو يعدّ أو يحصي؟

أصبح الرجل مُتهمًا دون محاكمة، ومخبرًا في مخيلة الجميع، وكان بعض الناس يلقون أمامه نقودًا اتقاءً لشر محتمل، لا شفقة عليه، وبعضهم يتجنب النظر إليه، وبعضهم يرمقه بنظرة حادة من بعيد ثم يشيح بوجهه سريعًا.

أما أنا فكنت واحدًا منهم، ممن صدقوا تلك الحكايات، وكلما مررت قربه شعرت بشيء غامض من التوجس. لم أفكر يومًا أنّ أسأل نفسي: ماذا لو كان بريئًا؟ ماذا لو كانت حركاته مجرد حركات؟ ماذا لو أنّ القصة كلها مجرد قصة؟ كنت أحيانًا أضع أمامه بعض النقود، لا بدافع الشفقة، بل بدافع غامض لم أعترف به لنفسي يومًا، وأحيانًا أخرى أتجنبه تمامًا، وكنت أنظر إليه من بعيد، ثم أصرف بصري سريعًا إذا التقت عيناي بعينيه.

ومضت الأعوام، ثم اختفى فجأة دون سابق إنذار، وبقيت قطعة الرصيف فارغة، وبعد مدّة قصيرة اعتاد الناس الفراغ كما اعتادوا وجوده من قبل، وحلّت محله أحاديث أخرى، وأخبار أخرى، ووجوه أخرى. وهكذا يفعل الزمن غالبًا؛ يطوي الأشخاص كما تُطوى صفحة قديمة في دفتر مزدحم.

بعد سنوات طويلة، كنت أجلس في دكان قديم قريب من ذلك المكان، وبينما نتبادل الأحاديث، مرّ ذكر الرجل فجأة، كأنّ أحدًا أخرج صورته من صندوق مغلق. قلت لصاحب الدكان مبتسمًا:

أتذكر ذلك المتسوّل؟ كانوا يقولون إنّه مخبر.

ضحك الرجل ضحكة طويلة، ثم هزَّ رأسه، وقال:

مسكين، حتى بعد موته ما زالت هذه الحكاية تطارده.

استغربت نبرته، فسألته، تنهد قليلًا، ثم قال:

لم يكن مخبرًا ولا يعرف طريق الأجهزة الأمنية أصلًا، كان مريضًا منذ طفولته باضطراب عصبي يجبره على تحريك يديه والتلفت باستمرار. لا يستطيع السيطرة على جسده، حتى وهو نائم كانت الحركات تلاحقه. أعرف أهله جيدًا، كانوا يعانون معه أكثر مما كان يعاني هو.

وتابع بعد لحظة صمت:

هل تعلم أنهم طردوه من هذا المكان أكثر من مرة. كان يتوسل إليهم أن يتركوه يجلس على الرصيف، ويبكي كطفل، ثم يعود بعد أيام إلى المكان نفسه، خائفًا، يتلفت أكثر من عادته، كأنّه ينتظر أن يقتادوه في أية لحظة.

ساد الصمت. لا أذكر ما الذي قاله بعد ذلك، فقد كنت مشغولًا بشيء آخر، وفي تلك اللحظة فقط أدركت أنّ المتهم الحقيقي لم يكن ذلك المتسوّل، المتهم الحقيقي لم يكن الرجل، بل خوفنا الذي يبحث دائمًا عن عدو، ويحوّل المختلف إلى شبهة، ثم يملأ الفراغ بحكايات يخترعها ثم يصدقها.

رأيت الرجل فجأة كما لم أره من قبل. لم أره جالسًا على الرصيف، بل رأيته وحيدًا داخل دائرة واسعة من الظنون، رأيته يتلقى نظرات الريبة يومًا بعد يوم، وسوء التأويل

عامًا بعد عام، دون أن يعرف حتى التهمة المنسوبة إليه، وربما كان يظن أنّ الناس ينفرون منه بسبب هيأته فقط، بينما كانوا في الحقيقة يخافون من قصة اخترعوها عنه ثم صدقوها

خرجت من الدكان ومشيت نحو المكان الذي كان يجلس فيه. كان الرصيف كما هو تقريبًا، المحلات نفسها، والشارع نفسه، وضجيج السيارات نفسه، وحده الرجل لم يكن هناك.

وقفت للحظات أحدّق في الفراغ، تذكرت كم مرّة نظرت إليه بعين الشك، كم مرة فسّرت حركاته بما يوافق ظنوني لا بما يوافق حقيقته، كم مرّة شاركت بصمتي في ظلم رجل لم يؤذني يومًا ولم ينطق بحرف واحد يدافع به عن نفسه.

كان الغروب يهبط ببطء على الشارع، والرصيف ما زال هناك، والرجل اختفى، لكن شيئًا آخر بقي؛ بقيت صورة إنسان عاش سنوات طويلة تحت حكم لم يصدره قاضٍ، بل أصدرته العيون، رجل فقير، كثير الالتفات، لا يعرف أنّ الناس كانوا يؤلفون حوله قصة كاملة، بينما كان هو منشغلًا فقط بمحاولة التعايش مع جسد لا يطيعه.

وقفت قليلًا أحدّق في المكان الخالي، وشعرت أنّ الرجل لم يكن كثير الالتفات كما كنا نظن، نحن الذين كنا نلتفت إلى أوهامنا كل يوم، ثم نعود فنراها حقائق.

الضـوءُ الأحمـر

أحيانًا أظنّ أنّ الإشارة الضوئية صارت تعرفني أكثر من أبنائي، فمنذ سنوات وفي كل صباح أقف في المكان نفسه، وأراقب السيارات وهي تتكدس أمام الضوء الأحمر، بعض الوجوه صارت مألوفة؛ الرجل الأصلع الذي يقود سيارة بيضاء، والفتاة التي تضع نظارة سوداء كبيرة، والسيدة التي تشتري مني كيس ترمس كل يومين، ثم تبتسم لي بحزن كأنّها تعرف حكايتي كلها. لا أحد يعرف شيئًا، حتى أنا لم أعد متأكدًا أنني أعرفها.

أضع أكياس الترمس فوق الحامل الخشبي وأنتظر. حين يتحول الضوء إلى الأحمر، يناديني بعض السائقين طلبًا لكيس ترمس أو أكثر، أذهب إليهم بخطوات بطيئة، فركبتاي تؤلمانني كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله. قال لي الطبيب قبل أسابيع إنّ عليّ أن أرتاح، فضحكت يومها. من يملك رفاهية الراحة؟

كان السائقون يحفظون ملامحي ربما أكثر مما يحفظون ملامح أقاربهم البعيدين، بعضهم يشتري مني ترمسًا لا يشتهيه، وبعضهم يناولني ورقة نقدية كبيرة ويأخذ كيسًا صغيرًا، وبعضهم يكتفي بالدعاء لي من خلف الزجاج المغلق، وكنت أشكر الجميع بالطريقة نفسها؛ ابتسامة خجولة وهزة رأس خفيفة، ونادرًا ما كنت أتكلم.

السائقون ومَنْ يمرون بالإشارة يعتبرونني متسوّلًا برتبة بائع، أو متسوّلًا تحت ستار البيع، وأنا لا أنكر ذلك، فهذه هي الحقيقة المرّة التي لا أتبرؤ منها، فالبيع عند الإشارات الضوئية تسوّل بأي شكل من الأشكال، وخاصة لرجل قصير القامة، نحيل وعليل الجسد، وكتفاه تميلان قليلًا إلى الأمام كأنّهما تحملان سنوات أطول من عمره الحقيقي.

قبل أربعين عامًا كنت أقطع المصنع من أوله إلى آخره عشرات المرات في اليوم دون أن أشعر بالتعب، وكان صوت الآلات يملأ المكان، ورائحة الحديد الساخن تلتصق بملابسي. كنت أعود إلى البيت متعبًا، نعم، لكن التعب وقتها كان مختلفًا، تعب رجل يعرف لماذا يتعب.

أشتاق إلى تلك الأيام. أشتاق إلى زوجتي الأولى أكثر، كانت تعرف من خطواتي على الدرج إن كنت متعبًا أو مهمومًا، وتفتح الباب قبل أن أطرق أحيانًا، فأشعر أنّ الدنيا كلها تنتظرني خلف ذلك الباب.

ماتت فجأة، وتركت البيت فارغًا. غريب كيف يتغيّر البيت عندما يغادره شخص واحد. الغرف نفسها، الأثاث نفسه، الستائر نفسها، لكن الهواء نفسه يصبح ثقيلًا.

في البداية كنت أزور أولادي ويزورونني كثيرًا، ثم صار لكل واحد حياته ووظيفته وأطفاله ومشاغله، ثم تفرقوا في المدن الأخرى يطاردون أرزاقهم، وصرت أتصل فأسمع العجلة في أصواتهم، لم يقصدوا الإساءة، أعرف ذلك، لكن الحياة تأكل الناس دون أن يشعروا.

في وحدتي، كنت أترك المصباح مضاءً في غرفة الجلوس، لم أكن أخاف الظلام بقدر ما كنت أخاف الصمت.

بعد سنوات من الوحدة، تزوجت امرأة مطلقة تصغرني بخمسة وعشرين عامًا. يومها ظننت أنّني وجدت رفيقة تؤنس ما تبقى من الطريق، لم أطلب أكثر من ذلك. نعم تزوجت، لا لأنني كنت أبحث عن حب جديد، ففي مثل هذا العمر لا يبحث الإنسان عن الحب بقدر ما يبحث عن صوت آخر في البيت، عن شخص يسأله إن كان قد تناول دواءه، عن فنجان شاي يشربه معه عند المساء، هذا كل شيء.

في البداية توهمت أنني وجدت ما افتقدته، ثم دون مقدمات طلبت مني أن أبحث عن عمل، ظننتها تمزح، لكنها كانت جادة، وتعللت بأنّ راتبي التقاعدي لا يكفي، ومن حقها أن تعيش كغيرها كما تقول.

طرقت أبوابًا كثيرة يومها، لا أنسى نظرات أصحاب المحال والشركات، كانوا ينظرون إلى شعري الأبيض قبل أن ينظروا إلى وجهي، أحدهم قال ساخرًا: لو كنت أصغر بعشرين سنة فقط.

وأنا كنت أفكر أنني لو كنت أصغر بعشرين سنة لما وقفت أمامه أصلًا، وحين فشلت، أحضرت لي أكياس الترمس. قالت إنّ البيع على الإشارة لا يحتاج إلى خبرة. ولا أراها إلا دفعتني للتسوّل من حيث تدري أو لا تدري.

ومنذ ذلك اليوم وأنا هنا؛ صيفًا وشتاءً، بلا إجازات ولا أعياد، وعندما تمطر أضع فوقي قطعة مشمع تقيني شيئًا من البلل.

ذات ليلة، فاجأني مرض شديد، وأخذت أتلوّى من الألم، نقلوني إلى المستشفى، وبعد يومين عدت إلى البيت، ومكثت ثلاثة أيام حتى تعافيت، وعدت إلى إشارتي.

سألت نفسي يومها: ماذا كنت أفعل لو بقيت وحدي؟

ربما كنت سأموت وحيدًا في البيت دون أن ينتبه إليّ أحد لأيام. الفكرة أخافتني، ولهذا لم أعد أعرف ماذا أفكر.

أحيانًا أغضب منها، وأحيانًا أشفق عليها، وأحيانًا أقنع نفسي أنها تفعل ما تفعله خوفًا من الفقر، ثم أعود فأصمت.

من حولي كانت الحكايات تنمو كما تنمو الأعشاب البرية بعد المطر، كنت أسمعها في طريقي، وأحيانًا من سائقي السيارات عند الإشارة؛ الناس يتحدثون كثيرًا. أسمع بعض الكلام أحيانًا. لا يقصدون أن أسمع، لكن الريح تحمل الأصوات. يقولون أشياء عنها، أشياء كثيرة، إنها تستغلني، تستغفلني، تخونني، تبيع جسدها. يربطون بين غيابي الطويل والأساور الذهبية التي تزداد في معصميها، والخواتم الجديدة التي تظهر بين حين وآخر، وإلى الملابس التي تبدو أغلى من دخل البيت. يتحدثون عنها كما لو أنّهم يعيشون داخل بيتنا. يتحدثون بين بعضهم ثم تنخفض أصواتهم فجأة، يتبادلون النظرات، ويتركون الجمل معلّقة. أعرف أن لا أحد يملك دليلًا على شيء، لكن الشائعات لا تحتاج إلى أدلة كي تعيش

أخفض رأسي وأتابع المشي إلى البيت صامتًا. لا أسألها، ولا أفتش وراءها، ولا أعرف إن كنت لا أريد أن أعرف أم أنني أخاف المعرفة.

في بعض الليالي أستيقظ فأجدها نائمة إلى جواري، فأشعر بالخجل من نفسي ومن ظنون الناس، وفي ليالٍ أخرى أستيقظ فأجدني أحدّق في السقف حتى الفجر، وأفكر في كلامهم كله، ثم أكره نفسي مرة أخرى.

منذ مدة طويلة، تعلمت أنّ بعض الأسئلة لا تمنح أصحابها الراحة مهما كانت الإجابة

اليوم بعت كل ما معي قبل العصر، كنت أستطيع العودة إلى البيت مبكرًا، لكنني لم أفعل، فجلست على الرصيف البعيد أراقب السيارات. الوقت يمضي ببطء، والشمس تنحدر نحو المغيب، والناس يركضون إلى بيوتهم، أما أنا فكنت أؤجل العودة قليلًا، لا أعرف لماذا، ربما لأنّ البيت لم يعد يشبه ذلك البيت الذي كانت تفتح بابه زوجتي الأولى قبل أن أطرقه، وربما لأنني حين أصل إليه سأسمع الصمت نفسه الذي هربت منه منذ سنوات.

عندما أضاءت السماء بلون برتقالي حزين، حملت الحامل الخشبي فوق كتفي، فشعرت

بثقله هذه المرة أكثر من المعتاد، أو ربما لم يكن ثقل الخشب، ربما كانت السنوات كلها معلّقة عليه.

سرت ببطء نحو البيت، وخلفي كانت الإشارة الضوئية تواصل عملها كأنّ شيئًا لم يحدث، تضيء بالأحمر ثم بالأخضر، بينما تبتلع المدينة وجوه الناس واحدًا بعد آخر.

أما أنا، فكنت أمشي نحو باب لا أعرف على وجه اليقين إن كنت أعود إليه، أم أعود إلى وحدتي.

الرّجُل الآخـر

في المرّة العاشرة، لم أذهب إلى مركز الأمن، تركت المهمة لأخي الأصغر، فقد كنت أعرف ما سيحدث بالتفصيل؛ سيجلس أبي على الكرسي الخشبي مطأطئ الرأس، وسيوقّع أخي الأوراق المطلوبة، ثم يعودان إلى البيت في صمت ثقيل، كأنّهما عائدان من جنازة. كنت أعرف كل ذلك لأنّني عشته تسع مرّات من قبل.

في المساء عاد أبي. صافحني كأنّ شيئًا لم يكن. سألني عن عملي، وسأل عن حفيدته التي أصابتها الحُمَّى قبل أيام، ثم جلس يشاهد نشرة الأخبار.

أذكر أنّني ظللت أحدّق فيه طوال الوقت، لم أكن أرى الرجل الذي ربّاني، كنت أحاول أن أرى الرجل الآخر، ذلك الذي يخرج كل بضعة أشهر إلى مدينة بعيدة، يرتدي ثيابًا رثة، ويجلس على الأرصفة مادًّا يده للناس، الرجل الذي لم أفهمه يومًا.

حين كنت صغيرًا، كان أبي بطلي الأول والأوحد، موظف منضبط، يستيقظ قبل الجميع، يحلق ذقنه كل صباح، يلمّع حذاءه بنفسه، ويغضب إذا وجد كتابًا في غير مكانه، كان يحب النظام بصورة مبالغ فيها، لذلك حين اكتشفنا أمر التسوّل قبل سنوات، بدا الأمر مستحيلًا.

أتذكر وجه أمي جيدًا في ذلك اليوم، وأتذكر أنني ضحكت، نعم، ضحكت، ظننت أنّ ثمة تشابهًا في الأسماء، أو خطأ في الأوراق، أو رجلًا آخر يشبه أبي، لكن الرجل كان أبي، والصورة كانت صورته، والاسم اسمه، ومنذ ذلك اليوم بدأت حياتان له تسيران جنبًا إلى جنب؛ الحياة التي نعرفها، والحياة التي لا نعرفها.

سألته مرّة:

لماذا؟

نظر إليّ طويلًا، ثم قال:

لا أعرف.

أغضبني جوابه، ظننته يراوغ، قلت بعصبية:

لا بُدَّ أنّك تعرف.

قال بهدوء:

لو كنت أعرف لتوقفت.

كان في تلك اللحظة مهزومًا، ليس أمامنا، بل أمام نفسه.

بعد حادثة مركز الأمن العاشرة، جمعنا في البيت، أو ربما جمعناه نحن، لا أذكر، كل ما أذكره أنّ أختي كانت تبكي، وأخي كان غاضبًا، وأمي كانت تنظر إلى السجادة بصمت. لم يكن يحقّ لنا تعنيفه أو زجره أو توبيخه أو تأديبه أو شتمه، فهو يبقى والدنا على أي حال. قلنا له إنّ الأمر يجب أن ينتهي هذه المرّة نهائيًا، فقد أصبحنا مضغة في أفواه الناس، ونحن وهو لا ينقصنا شيء، وأوضاعنا المالية ميسورة والحمد لله. طلبنا منه ضمانًا، وعدًا، أي شيء.

نظر إلينا واحدًا واحدًا، ثم قال:

وماذا لو لم أستطع؟

ساد الصمت. لم أفهم العبارة يومها، أما الآن فأفهمها جيدًا، كانت استغاثة، لكننا سمعناها كأنّها عذر ليتهرب من التعهد والالتزام.

لم يكن أبي متسوّلًا لحاجة في يوم من الأيام، بدأ الأمر في البداية أشبه بلعبة غريبة، تجربة عابرة، كما أقنع نفسه، بعد ذلك صار ينتظرها، ويشتاق إليها، حتى أدمنها ولم يستطع مقاومتها، كأنّ قوة غريبة قاهرة تقوده ليتسوّل!

اختفى بعد أسبوع، بحثنا عنه في كل مكان، في المدن التي اعتاد الذهاب إليها، وفي المدن التي لم يذهب إليها من قبل؛ في المستشفيات، وفي المخافر، وفي المساجد، كنا نبحث عن رجل مفقود، لكنني كنت أشعر أنّني أبحث عن شيء آخر؛ عن جواب ربما، عن تفسير، عن المفتاح الذي يفتح الباب المغلق في رأس أبي.

بعد أيام، وجدوه ميتًا داخل عبارة إسمنتية تحت طريق سريع، في مدينة جديدة. ثياب التسوّل نفسها، المشهد نفسه الذي تكرر عشرات المرّات، لكن من دون عودة هذه المرّة.

بعد الدفن وأيام العزاء، دخلت غرفته الخاصة التي اتخذها مكتبًا ومنامًا أحيانًا، كانت مرتبة كما تركها: السرير، الخزانة، المكتب، المصحف، الكتب، الأقلام، النظارة، الساعة القديمة، كل شيء في مكانه.

فتحت الخزانة، فوجدت كيسًا أسود أسفلها، مخفيًّا تحت شراشف، وهو الكيس نفسه أو مثله الذي رأيته صدفة قبل سنوات. أخرجت محتوياته: الثياب الرَّثة، الحذاء البالي، القبعة القديمة. ملابس التسوّل الاحتياطية كما يبدو. جلست على الأرض، وأخذت أتأمّلها، كنت أظن أنّني سأشعر بالغضب، أو بالخجل، أو بالمرارة، لكنني لم أشعر بشيء من ذلك، شعرت فقط بحزن عميق، حزن رجل أدرك متأخرًا أنّه عاش عمره كله مع شخص لم يعرفه تمامًا.

تذكرت أبي وهو يعلمني ركوب الدراجة، وأبي وهو ينتظرني أمام قاعة الامتحان، وأبي وهو يبكي فرحًا بتخرجي في الجامعة، وأبي وهو يحمل ابنتي الصغيرة يوم ولادتها، وتذكرت أيضًا الرجل الذي كان يجلس على الأرصفة ويمدّ يده متسوّلًا في مدينة أخرى. أيّهما كان أبي؟ لا أعرف، وأظن أنّني لن أعرف أبدًا.

طويت الثياب وأعدتها إلى الكيس، ثم أغلقت الخزانة، وقبل أن أخرج من الغرفة التفتُّ نحوها، كان كل شيء ساكنًا، هادئًا، كأنّ أحدًا لم يعش هنا، وكأنّ السرّ الذي حيّرنا ثلاثين عامًا خرج مع صاحبه، وأغلق الباب خلفه.

لا تُخبـر أحـدًا

منذ سنوات، كان يأتي إلى المدرسة قبل الجميع، يفتح البوابة الحديدية، يكنس الممرات، يمسح زجاج الإدارة حتى ينعكس عليه ضوء الصباح، ثم يشعل الموقد تحت إبريق الشاي. كان يعرف عدد ملاعق السكر التي يفضلها كل معلم، ويعرف أيهم يشرب القهوة حلوة أو مُرّة، وأيهم يكتفي بفنجان ماء مغلي يضع فيه كيس شاي أعشاب يخرجه من مكتبه.

كان حاضرًا في كل زاوية، لكنه، على نحو غريب، لم يكن حاضرًا في ذاكرة أحد. لم يكن يتحدث كثيرًا، وإذا تحدث، اختار شخصًا واحدًا، بعد انتهاء الدوام أو في فسحة هادئة، وقال بصوت يكاد يعتذر عن وجوده:

أعرف أنّ طلبي ثقيل، لكن أمي مريضة، وبحاجة ماسة لدواء لا أملك ثمنه، فإن استطعت مساعدتي فجزاك الله خيرًا، وإن لم تستطع فلا بأس. فقط أرجوك، لا تخبر أحدًا، لا أريد أن تهتز صورتي وتُمسَّ كرامتي.

كانت الجملة الأخيرة أشد وقعًا من الأولى، عندها يخرج المعلم محفظته وهو يشعر أنّه لا يدفع ثمن دواء، بل يحرس كرامة رجل.

وهكذا كان يحاول مع كل معلم يتوسم فيه الاستجابة لطلبه، وغالبًا ما كان ينال بغيته.

بعد شهرين على الأكثر يعود بعذرٍ مختلفٍ، هذه المرّة إيجار بيتٍ متراكم، وبعدها فاتورة كهرباء، ثم دين قديم، وفي كل مرّة، يسبق الطلب ذلك الرجاء نفسه: «أرجوك، لا تخبر أحدًا». فقد كان يعرف أنّ السر يجعل اليد ألين.

لم يصدقه الجميع، فقد كان في المدرسة معلم لا يمنح ثقته بسهولة، لم يكن قاسيًا، لكنه اعتاد أن يفتش عن الحقيقة قبل أن يفتح جيبه، فراقب المراسل، وسأل مَن يعرفه خارج المدرسة، وجمع التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه إليها أحد.

لم تكن الأم تعيش معه أصلًا، بل مع أحد إخوته الميسورين، لم يكن عليه إيجار متراكم، ولا أطفال ينتظرونه، ولا زوجة تشاركه ضيق الحياة، فقد كان يسكن وحيدًا في غرفة متواضعة، يختفي في بعض الأمسيات إلى المكان الذي يعرفه رواد القمار جيدًا، ويعود آخر الليل بوجه مطفأ وجيوب أكثر فراغًا.

استدعاه المعلم إلى غرفة جانبية، وأغلق الباب، لم يرفع صوته، ولم يشتمه، وضع أمامه ما عرفه، ورقة بعد أخرى، وحقيقة بعد أختها، حتى بدا الرجل كمن يرى نفسه في مرآة لم يكن يتوقع وجودها. قال له بهدوء:

لا يهمني المال الذي أخذته. ما يهمني أنّك جعلت الناس يشكون في كل محتاج سيأتي بعدك. فأنت لا تسرق نقودهم، أنت تسرق ثقتهم. ما تفعله معيب، ولا يقبله إنسان حر شريف. أحذرك، إذا كررت هذا مرّة أخرى، فسأخبر الجميع، ولن أتردد.

ظلّ المراسل صامتًا، لم ينكر شيئًا. كانت عيناه معلّقتين بالأرض، كأنّ البلاط صار أرحم من النظر في وجه إنسان يعرف الحقيقة كاملة، ومنذ ذلك اليوم، انتهت الطلبات.

مرّت الشهور هادئة. صار يحمل صينية الشاي كما اعتاد، ويمشي في الممرات بخطوات خفيفة، ولم يعد يستوقف أحدًا بعد الدوام.

مع بداية العام الدراسي التالي، نُقل ذلك المعلم إلى مدرسة أخرى.

في الأسبوع الأول، لم يحدث شيء، وفي الأسبوع الثاني، اقترب المراسل من أحد المعلمين الجدد بعد انتهاء الدوام. تردد لحظة، وتذكر المعلم الذي كشف حقيقته، ثم مضى، كأنّ العادة كانت أقوى من الخجل. خرج صوته خافتًا كالمعتاد:

أمي...

ولم يُكمل الجملة، ابتسم المعلم الجديد ابتسامة مشفقة، وأخرج محفظته.

بعد سنوات طويلة، التقى المعلم القديم بزميل له من المدرسة نفسها، وبين حديث وآخر، سأله عفويًا:

وذلك المراسل. هل تغيّر حاله؟

تنهد المعلم وقال:

تغيّر كل شيء، إلا هو.

ثم حكى له أنّ الوجوه تبدلت، والمعلمين تقاعدوا أو انتقلوا، لكن الحكاية بقيت هي نفسها. فقط كانت الأعذار تتغيّر مع الزمن، أما الرجاء الأخير، فلم يتغير أبدًا: «أرجوك، لا تخبر أحدًا».

ساد الصمت بينهما. لم يشعر المعلم بالانتصار لأنّه اكتشفه يومًا، ولا بالهزيمة لأنّه عاد إلى ما كان عليه، بل أسف على الثقة التي انسكبت ذات يوم، ولم تجد من يجمعها من الأرض.

وفي تلك اللحظة، خطر له خاطر لم يغادره بعدها؛ ربما كان الرجل، في أول كذبة، يبحث عن مال، لكنه بعد سنوات، صار يبحث عن كذبة جديدة يستطيع أن يعيش بها يومًا آخر.

نِصفُ دينارٍ

لم يكن أحد في الحي يعرف اسم الشارع الرسمي، لكن الجميع كانوا يعرفون أين يمكن أن يجدوا عبود. كل صباح، وقبل أن تزدحم الأرصفة بالمارّة، يظهر من آخر الشارع بخطوات هادئة، وقميص نظيف، وشعر مشذّب على قدر ما تسمح به يد أمه أو أخته، ثم يبدأ عمله الذي لم يكلّفه به أحد، ينحني ليلتقط ورقة أو كيسًا بلاستيكيًا أو علبة عصير فارغة، أو صندوقًا كرتونيًا، وكأنّ المدينة أوصته سرًا ألا يترك على الأرض ما يشوّه وجهها. كان يحمل النفايات إلى الحاوية بجدية موظف يؤدي واجبه، ثم يمضي مبتسمًا إلى مساحات أخرى من الرصيف أو الشارع.

لم يكن الناس ينظرون إليه بالطريقة نفسها؛ فبعض الغرباء كانوا يرونه رجلًا أبله يجوب الشوارع بلا غاية، أما أهل الحي فكانوا يعرفون أنّ المكان يصبح أنظف بعد مروره، وأهدأ أيضًا، كأنّ ابتسامته تكنس شيئًا لا تراه المكانس.

كان لا يسأل الغرباء، ولكن حين يقترب منه أحد ممَنْ يألفهم، يبتسم، ويمدّ كفّه قائلًا بأدب وتواضع:

نصف دينار.

لا يطلب ربعًا، ولا دينارًا كاملًا. نصف دينار فقط، ولو حاول أحد أن يزيده، يرفض، ويصرُّ على طلبه (نصف دينار)، ولا يقبل إلا قطعة واحدة، وكأنّ هناك قانونًا لا يجوز كسره.

وكان إذا اعتذر له أحد قائلًا:

يا عبود، أعطيتك نصف دينار قبل ساعات.

تتغيّر ملامحه في لحظة، ويشيح بوجهه خجلًا، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم ينسحب سريعًا، كأنّه ارتكب خطأ يستحق الاعتذار، لا مجرد سؤال نسي أنّه سأله.

وكان أغلب أصحاب البقالات في الحي يعرفون حكايته، فحين يدخل متجرًا صغيرًا، يضع نصف الدينار على الطاولة بعناية، ثم يختار شيئًا يأكله، ويخرج راضيًا كأنّما عقد صفقة عادلة مع الحياة، وغالبًا ما كان ثمن ما يأخذه أقلّ من نصف دينار، لكن أصحاب البقالات يدخرون له ما تبقى، وربما أعطوه أكثر مما دفع، وأحيانًا دون أن يسأل.

لكن أكثر ما كان يُدهش الناس أنّهم رأوه غير مرّة إذا رأى طفلًا يبكي، يخرج نصف دينار من جيبه، ويدسه في كف الصغير، ثم يربت على رأسه ويبتعد وهو يبتسم. لم يكن يملك إلا القليل، ومع ذلك كان يعرف أنّ الدموع أغلى من النقود.

لهذا صار جزءًا من الحي، مثل الشجرة القديمة عند المفترق، أو المسجد الصغير، أو مطعم الفلافل الذي لا يغلق بابه قبل منتصف الليل. بعض الناس صاروا يجهزون نصف الدينار في جيوبهم قبل أن يروه، فإذا لمحوه من بعيد انتظروه وناولوه إياه قبل أن يسأل، عندها كان يهزُّ رأسه شاكرًا، وتتكلم عيناه أكثر مما يتكلم لسانه.

مع غروب الشمس، يختفي عبود دائمًا، لم يكن أحد يراه بعد المغرب، ولا قبل السابعة صباحًا. كان ذلك نظامًا ثابتًا لا يتبدل، ولم يسأل أحد أسرته إن كانوا هم من رسموا له هذا الإيقاع، أم أنّه حفظه بطريقته الخاصة.

ثم جاء صباح لم يظهر فيه عبود، قالوا:

ربما مرض أو سافر مع أسرته.

ومرَّ يوم، ثم آخر، ثم أسبوع. بدأت الأرصفة تمتلئ بأوراق لم يكن أحد يلاحظها من قبل. صار الكيس البلاستيكي الذي تدفعه الريح من طرف الشارع إلى طرفه يبدو وكأنّه يبحث عمن يلتقطه. حتى الحاويات بدت أكثر امتلاءً، مع أنّها لم تتغيّر.

بعد أيام، عرف أحد أصحاب المحال الخبر من قريب لعبود؛ كان في حي آخر، يفعل ما يفعله دائمًا، عندما لمح ورقة تتطاير في منتصف الطريق، فأسرع خلفها قبل أن تحملها الريح بعيدًا، وفي اللحظة نفسها جاءت سيارة مسرعة، حاول سائقها أن يتفاداه، لكن المسافة كانت أقصر من الندم.

نُقل إلى المستشفى، ولم يمكث طويلًا، ثم عاد إلى قريته ومسقط رأسه، محمولًا على أكتاف رجال لم يعرفهم أهل الحي، ودُفن هناك، بعيدًا عن الأرصفة التي حفظت وقع قدميه، ولذلك لم يشهد معظم سكان الحي جنازته، وعرفوا الخبر متأخرين، فحزنوا وتألموا لموته كثيرًا، وتأثروا لأنّه حتى لحظته الأخيرة، ظلّ يطارد ورقة لا يريدها أن تشوّه الطريق.

وفي صباحات كثيرة بعد ذلك، كان بعضهم، دون أن يشعر، يلتقط ورقة مرمية وهو في طريقه إلى عمله، أو يدفع علبة فارغة بقدمه حتى الحاوية. وكان صاحب بقالة، كلما رأى

طفلًا يبكي أمام متجره، يتراءى له طيف عبود، فيبتسم ابتسامة قصيرة لا تلبث أن تنطفئ، ويمدّ للطفل قطعة حلوى، أما نصف الدينار، فقد بقي زمنًا طويلًا في جيوب بعض أهل الحي؛ لا لأنّ أحدًا سيطلبه منهم، ولكن لأنّ أيديهم اعتادت أن تستعد لابتسامة لن تعود.